رواية

الكامبيليا والرمان

obeikandl.com

عبد السميع ، عمرو .
الكاميليا والرمان : رواية / عمرو عبد السميع
. ــ ط1. ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2011 .
192 ص ؛ 21 سم .
تدمك : 2 - 638 - 427 - 977 - 978
1 - القصص العربية
أ ــ العنوان 813
رقم الإيداع : 22635 / 2010

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : صفر 1432هـ ـ يناير 2011م

obeikandl.com

رواية

د. عمرو عبد السميع

الكاميليا والرمان

الدار المصرية اللبنانية

obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــــداء

إلى فضيلة (عدم الانكسار).. إلى عود الرمان الجاف الذي رفض - تاريخيًّا - الانحناء!

وإلى أبطال هذه الأوراق:

- الشمردل البتانوني شمردل.
- محمد البتانوني.
- الشيخ شمردل السوهاجي.
- شفاه.
- بدرناس.
- الدكتور بشير جار النبي.
- اللواء محمود جار النبي.
- رنا بشير.
- هنا بشير.
- مبروك الطيب.
- سيدة جاد.
- كاميليا مبروك.
- وداد مبروك.
- فريال مبروك.
- الدكتور عبد العزيز شوقي.
- شادية فتحي.
- نادية فتحي.
- حمدي سيراميك.
- كريم خفاجي.
- المستشار كامل رزق.
- راغب السيوفي.
- فردوس الزمر.

obeikandl.com

- وائل راغب.
- شحاتة الششتاوي.
- علي الششتاوي.
- صفية رزق.
- أمل راشد.
- محروس كامل.
- سمير التميمي.
- عبد الرحمن آل عنبري.
- وسيلة الكاظمي.
- باسم فهمي.
- هشام البابلي.
- الدكتور عبد العزيز شوقي.
- نازك جريس.
- الدكتور فؤاد جريس.
- شريف الدالي.
- عطية عفيفي.
- إبراهيم أبو السعود.

obeikandl.com

1

لوت الخيول الستة أعناقها لأعلى ؛ كل في اتجاه، وصهلت في عصبية مجنونة، مقاومة «الأراتم» التي تشد أفكاكها إلى لجاماتها، ومجاوبة استفزاز رنات الآلات النحاسية ووخزها حين رجَّت الوجود، وأطاحت سكينته، ففزعت العصافير من أوكارها في أشجار ميدان طلعت حرب.

تقلصت عضلات الجياد وانبسطت – في ارتعاد عنيف – وكأنها تريد التملص من تلك الأغطية البُنية الغامقة التي كست أبدانها من الرؤوس إلى الأياطل، مجبرتها على مشاطرة الموكب – من حولها – أحزانه، ومؤدية واجبًا اجتماعيًّا قسريًّا في انصياع، واستسلام، وتبرم معًا.

تتابعت خطوات الخيل على الأسفلت قصيرة متوترة، متشبثة بالأرض تود الخروج على إلزامات فرسانها المترجلين إلى جوارها، ممسكي السيوف اللامعة المشهرة بأياديهم اليسرى، فيما اليمنى تتشنج إلى جوار الأفخاذ التي تعلو – مفرودة – وتهبط في آلية رتيبة تنهيها خبطات منضبطة من أحذية الضباط على الأرض.

النعش الملفوف بعلم الجمهورية، ذي الألوان المتجاورة.. الأحمر والأبيض والأسود، يستقر على ظهر عربة مدفع «كراز» روسية الصنع، فيما يستمتع

obeikandl.com

المرحوم – في مشهد رحيله – بآخر أجواء الفخامة والأبهة، التي تعوَّد أن تحيطه وتتبعه باعتبارها من ألزم لزوميات هلته، وطلته، وحضوره.

عجلات عربة المدفع الخشبية، تخاشن أرضية الشارع مقرقعة، فيما يبدو بعضها يأمر بعضها – ناهرًا – بالخرس، حتى لا يشوشر ضجيجها على المشهد، فيخدش جلاله وهيبته.

موسيقات الجيش تعزف لحن «شوبان» الجنائزي خالطة بين إيقاعات مدوية متلكئة مخيفة، ونغمات تصدح بها الآلات النحاسية في نحيب حزين صارخ يشق عنان السماء، فيما أحد الجنود العازفين يخبط فردتي آلة «الكاس» النحاسيتين في بعضهما، مضفيًا مزيدًا من إحساس الخطورة والغموض.

حزم أشعة الشمس تضرب الأوسمة والنياشين التي يحملها صف من الضباط على حشيات قطيفية سوداء خلف عربة المدفع، وتلطش السطوح المعدنية لآلات «الترومبيت» و«الساكس» و«الهورن» و«الترومبون» و«التيوبا» في أيادي العسكر، ثم تنعكس في ومضات سريعة فكأنها شهب تهوي ثم ترتد، خاطفة الأبصار والانتباه هبوطًا وصعودًا.

الجنود يحملون باقات الورود يحوطها خوص النخيل، وتقطعها – بميل – شرائط بنفسجية مكتوب عليها بالفضي أسماء كبار مسئولي الدولة، ورجال الأعمال، ورؤساء الجامعات، وقادة الأحزاب السياسية، ورؤساء المؤسسات الصحفية، واللصوص.. ينعون رحيل العالم الجليل الدكتور بشير جار النبي أسطورة الكيمياء، وعز مصر وفخرها في المحافل العلمية الدولية، والحاصل على قلادة النيل العظمى التي تعطي حاملها الحق في أن يشيع عسكريًّا إذا انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وفي مقدمة صفوف المشيعين كان الدكتور عبد العزيز شوقي رئيس الحكومة، محاطًا بجمع من الوزراء الذين ارتدوا – أجمعين – النظارات السوداء، واتشحوا بحزن مصطنع باحث عن آلات التصوير ، وعدساتها لتسجيل وتوثيق الحضور، والمشاركة، والإنسانية.

الموكب يسير الهوينى، وأفراد الأسر القاطنة بنايات وسط البلد خرجوا إلى الشرفات يتابعون ذلك الحدث الاستثنائي، وبعض النسوة – جريًا على العادة المصرية في التشارك وعلى فهم شائع لمعنى الواجب – انخرطن في نهنهة حارة، ونشيج علا صوته حين توقفت الآلات النحاسية، وأفسحت المجال لإيقاعات الطبول الرهيبة منفردة.

والناس على ضفتي شارع صبري أبو علم محجوزون بصفين من أفراد الأمن المركزي ذوي التعبيرات على الوجوه مبهمة، المحدجين في المحتجزين للتأكد من أن أحدهم لن يتجاسر على العبور، أو اعتراض إرادة الباشا اللواء، الذي أمر جنوده بقطع الطريق على المارة قبل قدوم الجنازة من مسجد عمر مكرم في التحرير – قاصدة جامع شركس – بنصف ساعة.

وهناك في الصفوف الأخيرة للمشيعين، كان رأسه يظهر ويختفي وسط الزحام كأنه لا يريد لأحد أن يراه وبالذات الدكتور المرحوم.

غطته ملابسه القديمة التي لا تلائم مقاسه، وبرقت عيناه الصغيرتان بلمعة ذكاء يشارف الجنون، وتلفت دماغه الكبير – الذي لا يناسب جسمه– في خشية من يتوقع المداهمة، منخرطًا في إطراقه الدائم الذي لا يتكئ على سبب أو مبرر عضوي يجبر صاحبه ويضغطه كيما ينثنى على ذلك النحو، فبدا انحناؤه اعتياديًّا في المطلق.. هكذا من دون أسباب.. أو حيثيات، أو شروح.

الشمردل البتانوني شمردل..

ذلك الرجل الذي لازم الدكتور بشير جار النبي العمر بطوله، في عمله، ومكتبه، ومؤتمراته، واجتماعاته، ومحاضراته، من دون أن يقدر أي من خدام، وموظفي، وزملاء المرحوم على فك شفرة ماهيته، أو إدراك وظيفة ذلك الشمردل بالضبط، وكنه علاقته بالدكتور، أو تفسير عدم احتلاله موقعًا إداريًّا حول العالم الجليل، وعدم إناطة مهام خدمة واضحة الدلالة به.

ولطالما استهات أفراد حاشية الدكتور جار النبي في مماحكة الشمردل، أو تجاذب أطراف الحديث والثرثرة معه، أو استدراجه ثم استفزازه ليسبروا غوره، ويكشفوا سره، ولكن عبثًا؛ إذ كان صموتًا جوانيًّا يتحمل الأذى، ويلوك الإهانة، ولا يبدو متفاعلًا إلا مع الدكتور وهو يسلمه مظروفًا أو يتسلم منه آخر في مدخل البناية التي يقع فيها مكتبه، وهو ما يكون – في العادة – مشفوعًا بهمسات، ووشوشات مقتضبة يبدو فيها بشير، وكأنه يود أن يتخلص – مسرعًا – من حمولة تضايقه، ويتلاشى – في التو – وجود ذلك الكائن الغامض الماثل أمامه ترقبه الأعين، وتلاحظه بفضول حارق.

وحتى أثناء دراسة عالم الكيمياء للدكتوراه في جامعة «أكسفورد» البريطانية، اصطحب الشمردل – الذي عانق ظل جار النبي متشبثًا – مستأجرًا له غرفة صغيرة في بناية قريبة من الجامعة، ولم يسمح له بلقياه إلا في عجالة بمطعم «شجرة الليمون Lemon Tree» المجاور لمباني المعهد العلمي العريق شبيهة القلاع.

واقتصرت تلك اللقاءات – كمثل السابقات واللاحقات – على تسليم ملف أو مظروف، وتسلُّم آخر.

دَلَك التلازم المدهش بين جار النبي والشمردل غدد الوساخة التقليدية عند خدم وحشم الدكتور، وأطلق لألسنتهم العنان غامزة في قناة سيدهم، متبادلين نظرات قحاب فاجرات تفيد بوجود (إنَّ) بين الرجلين، مع إيماءات متواصلة عن انحناء الشمردل الدائم مؤكدين – في حسم قاطع – أن مطأطئ الرأس هو الحلوف أو الخليع لا غيرهما.

وما لبثت تلك الترديدات أن تآكلت ثم تلاشت تحت وطأة علاقات نسائية كثيفة غرق فيها الدكتور جار النبي حتى شواشيه، وكان الجميع شهود عيان ساحاتها ووقائعها، كما نفى الاشمئزاز البالغ الذي تعود الدكتور أن يعامل به الشمردل – قطعيًّا – أي برهان ثبوت يومئ إلى معنى الفضيحة – كما هندستها تلك التلسينات – أو يصادق عليها.

.....

اليوم ينهي جار النبي السطر الأخير من الفصل الأخير في علاقته الغريبة بالشمردل الذي سار خلف النعش وعربة المدفع، والموسيقات العسكرية، والمشيعين، تضرب وجدانه أنواء الحيرة، والتقلب، وعدم اليقين.

غمر الشمردل طوفان من إحساسات الراحة، والحرية، والخوف، والاستسلام للمجهول، ولذة المغامرة، منذ عرف بأخبار وفاة جار النبي من أحد حراس البيت، حين ذهب – في موعد مضروب – ليسلم مظروفًا، ولازمته تلك المشاعر متفاقمة لاثنتي عشرة ساعة، حتى وجد نفسه محشورًا في موكب الجنازة، موقنًا بأنه يوشك على تدشين حقبة جديدة من حياته، يتخلص فيها من تلك القوة الخفية التي تضغط دماغه، وكتفيه، وتجبره أن يمشي في الدنيا خفيض الرأس متهدل الكتفين، وربما كان أول مظاهر العصر الجديد قيام الشمردل بشطب اسم جار النبي من على هاتفه المحمول.

قبل رحيل الدكتور بشير في ريعان الشباب، مشارفًا الأربعين عامًا، عاش الشمردل وقائع حياة معقدة، بدت مثل كرة الصوف حين يحل المرء خيوطها من دون أناة أو حرص، فتتداخل متشابكة لا يبين أولها من آخرها، لا هي باتت نسيجًا، ولا هي عادت كرة من الصوف، ولا استحالت خيوطًا واضحة الهوية والاتجاه تمتد من نقطة معلومة إلى نقطة أخرى معلومة.

وبين نقطتين مجهولتين كان بشير عقدة دنيا الشمردل، ومحطة تحولها المركزية التي تشكلت بعدها الأحداث والمصائر على نحو مدهش عجيب.

بعيدًا – هناك – في «مِعجِبة» غرب البتانون في شبين الكوم – منوفية، عاش الشمردل أيام صباه وفتوته الأولى، وسط أزقتها الضيقة التي توشك فيها الأرواح على الصعود إلى بارئها من فرط الضغط، والانحشار، والاختناق، ولكنه كان مرفوع الرأس – مازال – مفرود الظهر، ممتلئًا حتى الحافة، بِخُيَلاء أفندية، ومعجبانية فلاحين ليس لهما نظير.

«مِعجِبة» كانت مقصد هجرات بعض غجر وحلب الصعيد، كما قطنها بعض رقيقي الحال القادمين من جنوب الوادي، كعتبة أولى ينتقلون بعدها – إذا أصابوا رزقًا أو ميسرة – إلى البتانون ذاتها، تلك القرية شديدة الاخضرار، صاحبة أعلى نسب كثافة السكان في البلاد، والتى ذكرها علماء الحملة الفرنسية في (وصف مصر) بأنها معقل صناعة كليم ليس له شبيه.

تناثرت في مشهد البتانون أشجار توت أسود وجميز كالعسل المصفى، وتسابق عيالها على جمعه في حجور جلالبيبهم وسط عواصف غضب الأمهات لبقع الفاكهة مستحيلة الإزالة التي رصعت هدمة كل منهم جراء تلك المغامرة، ولشعورهن المهزوم بأن تهديداتهن الوبيلة تذهب أدراج الرياح

في كل مرة؛ إذ لا يقوى العيال على مقاومة إغراء وغواية تلك الثمار الرائعة، وأشجارها الفاتنة التي انتصبت منذ زمن موغل في القدم على حواف كل القناين، إلا الشمردل الذي التزم التعليمات والطاعة، ووصفه رفاقه مجايليه بأنه: «خواف وقلبه خفيف».

توزعت الأعمال الرئيسية عند بعض غجر «مِعجِبة» – في ذلك الزمان – بين سرقة الحمير وصباغتها، وتجارة الحشيش المهرب من إيبيس في البحيرة، أو تسريح العاهرات، وانخرط الحلب – بنشاط ونمكية – في تلك المروحة من المهن، على حين تكومت أسر فقراء الصعيد متحوصلة على نفسها، نائية عن كل ما يمس الشرف، أو يخدش الحياء، غارقة في حلم ذهبي باليوم الذي تنتقل فيه إلى تلك البتانون البديعة، في ارتقاء اجتماعي لا يحتاج إلى برهان على المطلوب إثباته.

فى قلب تلك البيئة عاش الشيخ شمردل السوهاجي تاجر الجمال بعد أن حط في «مِعجِبة» منذ سبعين حولًا من الزمان متمتعًا باحترام الناس ومحبتهم، وهو ما طوروه إلى سلطة اجتماعية وَلَّوْهُ مقاليدها، فأصبح هو المرجعية في إنهاء شجارات العائلات، وصاحب الأمر والنهي في أمر حرمة أوسعها رجلها الظالم المفتري ضربًا من دون أن تغضبه أو تعصاه، وقعر مجلس الفصل في حقوق القسمة بين شركاء تجارة الحمير، والتى أحجم السوهاجي عن معرفة أصولها وفصولها، وما إذا كانت محلية من «مِعجِبة» أو مسروقة من بلد آخر على تخوم البتانون أو مشارفها.

كان الشيخ شمردل السوهاجي ذا شارب عظيم، يتكئ – باستمرار – على نبوت صيغ من فرع شجرة رمان، كمعظم نبابيت الصعيد غير القابلة

للكسر، وكثيرًا ما حكى أساطير مليئة بالوجد والحنين عن تلك الشجرة، محبة الماء الجاري، التي لا تميل عيدانها الشوكية أو تنثني أو تنحني بتاتًا.. بديعة الخضرة، ذات الزهرة العنابية فاجرة الجمال المسماة «جلنار»، والتي تزورها – في أطوار نموها – كل الألوان من الأخضر إلى الأصفر، إلى الأحمر، إلى النبيذي، إلى البمبي، وحين تتفسخ الرمانة من شدة الاستواء، فإن لون حبها لا يمكن الإحاطة بأوصافه، فهو كنوع غامض من فصوص الياقوت المرصوص لا تدانيه في الجمال أنواع.

وإذا خبط السوهاجي بفرع الرمان على الأرض، أنصت له أهل «مِعجِبة» متوقعين أن ينطق بالحكمة السيالة، وبالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي حين افتتن الشيخ شمردل بجانب القوة في عود الرمان، فإن زوجته صارخة الحُسن (شفاه) ارتبطت بالشجرة والثمرة على نحو آخر أحاطته خيالات موغلة في الحسية، ومغرقة في الغنائية، وكثيرًا ما همست لنفسها حين تطبخ أو تغسل، أو تخرج ثديها لترضع وليدها – وقد أسماه بعلها: (محمد البتانوني) نسبة إلى البلد / الحلم الذي تتعلق به أبصار الأسرة – مدندنة بما كانت تشارك رفيقاتها في الصعيد، مصفقة معهن بكفين مفتوحي الأصابع، وبصحبة إيقاعات ساذجة ومتكررة على طبلة صغيرة، أو صينية من الصاج، أو على سطح طبلية خشبية:

«يا بت رمانك من الصدور بيطل»، و«هيه رمانة واحـدة.. حلت جميصها.. لبست جميصها.. بتقول لعريسها.. الساعة واحدة.. هيه رمانة واحدة»، أو يتمادى الغناء في حسيته: «يارمان.. اخطف وادينى.. يارمان» و«يامه يالرمان.. من تحت الجمصان.. بيلدعني تجولي تعبان»، ثم بادعاء

المنعة وعفة القصد: «رمان على السواجي.. رمانك الحلو اللى ما يناجي». وأخيرًا في عودة إلى التلميحات الفاجرة «واتدحرج واجري يارمان.. وتعال على حجري يارمان».

كانت «شفاه» تتبسم وسط غنائها، فينفرج فمها عن صف أسنان بيضاء كاللؤلؤ، وتمتلئ عيناها بفيض فرح فوَّار، وتعلو غمازتان خديها الورديين الجميلين، فيصبح الصبح ولو في أنصاف الليالي.

ظل الشيخ شمردل يحلم بأن يعيد بناء تجارته من جديد، في أعقاب إفلاسه حين نصب عليه شركاؤه من أولاد عمومته في الصعيد مؤلفين حكاية عن مصادرة الحكومة للجمال وإلحاقها بالهجانة.

واختلط حلم شمردل الاقتصادي، بتلك الرغبة الاجتماعية التي تملكته كيما يعبر إلى ضفاف البتانون.. ولما هرِم الرجل وسقم، أودع ابنه البتانوني – بعدما صار مزارعًا يافعًا – حلمه ورغبته في أن تهجر أسرته «مِعجِبة»، وتحط في «البتانون»، كما أوصاه أن يسمي ابنه شمردل مثل اسم جده، وقد عاش حياته مزهوًا بذلك الاسم العربي الأصيل الذي يُطلق على أبطال السير ونجومها، ويعني: «القوي حسن الخلق».

فلما قضى الشيخ «شمردل»، اقترن ابنه البتانوني بإحدى كريمات عمه الكبير في سوهاج، واسمها «بدرناس»، وأنجب منها ولدًا أطلق عليه الشمردل، مصرًّا على اقتران الاسم بألف ولام التعريف، دليل التفرد والوحدانية، فقد كان الشمردل هو أمل الأسرة في أن يتعلم أحد أبنائها ويتحصل الشهادة الكبيرة، وربما يعبر بها إلى البتانون، أو – حتى – إلى ما يجاوزها.

وعاش البتانوني كل لحظة في حياته من أجل ابنه الشمردل، فألحقه كُتَّاب «مِعجِبة» ليتعلم القرآن، وردد على مسامعه حكايات مطولة عن انتساب أسرتهم في سوهاج إلى الأشراف من آل البيت، وقص على الولد سلخًا من سيرة جده الشيخ شمردل، والمكانة التي تبوأها وسط الناس؛ لأنه استوى مستقيمًا – طوال حياته – مثل عود الرمان الذي لا ينثني ولا ينكسر.

واحتضنت الجدة «شفاه» والأم «بدرناس» الولد حريصتين على أن يكون أنظف أقرانه، وأكثرهم هندامًا واعتزازًا بنفسه، وكانت دعوة الأم الدائمة لابنها: «ضحكت لك سنبلة يا ولدي».

وكبر الشمردل، وصار شابًّا، التحق المدرسة الثانوية، وربَّى شاربًا مربعًا عجيبًا من ذلك النوع الذي يُطلق عليه في الأرياف (شنب راديو)؛ إذ توزعت، أنواع الشوارب على الرجال بحسب السلطة التي قبض أحدهم على سدة قيادتها، أو المهنة التي انضم إلى طائفة مزاوليها، أو النمط الذي التصق به وارتبط.

فالشوارب الكبيرة الكثة، أو المبرومة المفتولة كانت لكبار الناحية، وشيوخها وأعمامها، وشارب الخط الرفيع ملاصق أو مجاور الشفة العليا هو سمة الشاب العايق الذي تعود التسكع على الجسر بين العصاري والمغرب، لابسًا جلبابًا شاهق البياض يشف – قليلًا – عما تحته، فضلًا عن حذاء ذي أزرار على الجنب، مشيرًا بالعين والحاجب إلى إحدى حاملات الزلع في عودتهن إلى الدور، كيما تتبعه إلى حقل أذرة مجاور، معشمها بمغامرة حسية عارمة ليس لها نظير.

وأخيرًا فإن الشارب المربع «الراديو» هو ملمح دال على الأفندي أو المثقف.

وهكذا كان الشمردل، كما أراده أبوه (البتانوني)، وأمه (بدرناس)، وسته (شفاه)، وجده (الشيخ شمردل السوهاجي) فحق عليه التحلي بشارب «راديو».

الشمردل كان في المقدمة من كل صفوف التعليم التي مر بها، وتحصل شهادة الثانوية العامة بترتيب الأول على المديرية بأسرها، والتحق كلية العلوم بجامعة القاهرة، وقطن المدينة الجامعية، ولكنه عزف عن الخُلطة والتراسل في العام الدراسي الأول مقتصرًا عن الدخول في علاقة تربطه بزميل أو صديق، كان خوافًا إزاء الناس ذا قلب خفيف، فظل معتكفًا في غرفته يذاكر طوال الليل، ثم يغسل ملابسه وينشرها، ويلمع حذاءه، ويكوي بنطاله ليظل – باستمرار – في أفضل صوره كما أرادته «شفاه» و«بدرناس».

وعلى الرغم من ذلك كان الولد محل سخرية زملاء الدفعة، وتناثرت حوله تعليقاتهم ونكاتهم تومئ إلى شاربه العجيب، واسمه الأشد عجبًا.

ولكن تفوق الشمردل – في نهاية العام الدراسي الأول – ودهشة أساتذته من قدراته العلمية، والعقلية اللافتة، رمم هشيم صورته في مواجهة زملائه وأعطاه مبررًا لاستمرار زهوه ومعجبانيته.. إذ لم يك المجهود الذي يبذله في غسيل ملابسه، وكيها، أو تلميع حذائه يكفى لتحقيق احترام الآخرين له، فهم – أجمعون – ذوو أحذية لامعة وملابس مغسولة ومكوية، أما ميزته التنافسية الكاسحة التي لا تضاهى، فكانت تفوقه العلمي، واحتلاله المزمن للمركز الأول في كل اختبارات كلية العلوم وبحوثها.

وبمرور زمن – رافقه امتلاء الشمردل بثقة تزايدت عبر نجاحاته ونظرة الإكبار التي تحصلها في عيون طلاب دفعته وزملاء الإقامة في المدينة

الجامعية- بدأ الولد يتجاوب مع اقترابات زملائه، فتحدث إليهم – على نحو مقتضب – في البداية، ثم تخلى عن تحفظه، وابتسم مقاسمهم – بعد ذلك – الحديث، مندمجًا في ثرثراتهم وضحكاتهم، وسط دهشة بعضهم من خفة ظله البالغة غير المتوقعة، مع التزامه عفة اللسان، ومكارم الأخلاق.

ولطالما زقزق له عفريت محرض، دافِعَهُ أن يصير مثل رفاقه، صاحب أسرار، ومغامرات، وتجارب، وأن يثبت لنفسه أنه – فعلًا – تجاوز «مِعجِبة» و«البتانون»، وعالم الأساطير التي سمع عنها ولم يخبَرها – مباشرة – عن سارقي الحمير، وتجار الحشيش، ومومسات الحلب، إلا أن طيف صورة جده – كما تجلى في روايات شفاه وبدرناس وأبيه محمد – كان يرده إلى رشده منتزعه من الغي، ومفيقه من أوهام أو أحلام أوشكت – كثيرًا – على ابتلاعه، فلا يبقى في عينيه سوى مشهد فرع الرمان العصيِّ على الكسر الذي اعتاد جده التوكؤ عليه، وهو ما لا يعني للشمردل سوى التفوق، والاستقامة، والكبرياء، والاستواء.

تحلقت حول الولد زمرة صغيرة، متباينة الألوان والأصول والأمزجة إلى حد بعيد، وبدا ذلك الطالب النجيب، وكأنه مسبب التئامهم الوحيد، وبالذات حين يستذكرون دروسهم جماعة، أو يكلفون ببحث مشترك؛ إذ كان الاقتران بالشمردل في مثل تلك الأمور، طريقًا مضمونًا للنجاح والفلاح، فضلًا عن تلك المكانة التي يبسط تأثيرها عليهم باعتباره أول الدفعة وأنبغ طلابها.

وبين أولئك الذين صاحبوا ابن مِعجِبة كان سمير التميمي، زميله الملتحي، المقيم في المدينة الجامعية ملاصقًا لغرفة الشمردل، والذي كان متلبسًا بالغضب – دائمًا – عاقد الحاجبين، متجهمًا رافضًا لكل الدنيا من

حوله، حاكيًا للشمردل – بعد طول اختبار وتفحص أعقبهما اطمئنان وارتياح – عن معنى العدل حين يهان، وطيف الخلاص حين يلوح، متسندًا على سلطة السماء في إطاحة الجور والفسق اللذين تسيدا البسيطة وأزهقا أنفاس الساعين فيها.

وكثيرًا ما اعتقد الشمردل أن السبب في نقمة سمير هو غياب بعض أفراد الجيل الحالي من عائلته في اعتقال عنوانه الحرب على التطرف والإرهاب، بعدما غاب الجيل الماضي في حبس عنوانه مطاردة الشيوعيين.

ولكن سمير – فيما يبدو – طور إبداعات الغضب لتتجاوز اعتبارها نتيجة تلك التجربة المخيفة، ولتنتج – ذاتيًّا – ما يفاقم التداعيات، ويعقد مظاهرها، مخترعًا ومضيفًا.. فصار يتحدث عن المعنى المجرد لكل من الظلم والعدالة من دون التوقف أمام ملف أو حدث بالذات.

لم يصاحب سمير سوى الشمردل، وحرص على أن يقتسم معه كل ما ترسله له أمه – حين ميسرة – من «صهرجت الصغرى» / دقهلية، مقتطعة من قوت الأسرة، محولة مجرى سرسوب الحياة الشحيح، الذي – تواقة – تنتظر قطراته المتلكئة، إلى فم ابنها.. حيلتها طالب كلية العلوم.

كان الإيذان بوصول المدد الفقير من أم سمير – كل دهر – هو حضور شقيقه – الذي يعمل فنيَّ صيانة في هيئة التليفونات بالمنصورة – حاملًا سلة من الخوص أو لفة من الورق إلى أخيه في المدينة الجامعية محتوية بطة ربتها أمه – طول شهور – عَالِفَتَها بالفول والكسب وبقايا الخضار، وإلى جوارها طاجن أرز معمر يفوح منه عبير الزبد الفلاحي الذي تسوَّلته من جارة تعودت التثاقل عليها، واستدرار عطفها.

أما الشمردل فقد اقتصرت إمدادات مِعجِبة وتموينها – بالنسبة له – على بعض مبالغ مالية محدودة تصله بحوالات بريدية، حين يرسل أباه الذي هاجر إلى ليبيا مبلغًا إلى بدرناس وقد لزمت فرشها بعد أن كسر السكر ظهرها، وهد حيلها، ولم تعد تقوى على أعمال الدار نظافةً أو طبيخًا، لا بل ربما لم تعد تنهض – حتى – بابتهالها التقليدي: «ضحكت لك سنبلة يا ولدى».

ومن ثم فقد كان الشمردل يدعو سمير – من وقت إلى آخر – في أحد مطاعم بين السرايات شبيهة الأخنان، المكتظة بزبائنها، الفواحة بروائح طعام يختلف عن أكل المدينة الجامعية، الذي عافته نفسا سمير والشمردل؛ لكونه يماثل ما يقدم في الجيش أو السجن.

وصادق سمير التميمي أصحاب الشمردل، وقاسمهم مجلسهم حين يكون صاحبه حاضرًا؛ إذ شعر – دائمًا – أنه ينبغي أن يكون في حماية الشمردل، متوقيًا ذلك العالم الذي يخشاه، ويتردد إزاءه، المصطخب بالظلم، والغارق في إعتام غاب عنه نور العدالة.

وحتى حين لقياهم لمذاكرة جماعية، حرص التميمي على عدم توجيه الكلام لسوى الشمردل، داعيه – وحده – لأن يشاركه الصلاة جماعة إذا حل ميقاتها.

وبين أفراد الشلة التي اتصلت خيوطها حول الشمردل كان وائل راغب، سوري الأصل، ابن المعلم راغب السيوفي صاحب دكان البسبوسة الشهير في شارع محمد علي، والذي طبع صورته على ورق لف البضاعة بالطربوش الشامي الطويل، والشوارب المبرومة.

تربى وائل على المثالية، وخيم جو منزلي مسالم على كل ما أحاطه، ولم يتردد حوله الخطاب الشائع في البيوت المصرية المتعثرة عن معضلة تدبير المعايش، أو الحديث التقليدي في الأسر المتوسطة عن طموح الصعود، والمعارك ضد خصوم العمل ومؤامراتهم.

خيم عليه – مبكرًا – إحساس بالرضاء والتصالح، ولم يركبه أو يهمزه جني الرغبة في التميز، فعاش على صراط المتوسط الحسابي، وقبول القسمة والنصيب.

تشكلت بيئته الحاضنة من أب ميسور، وأم رؤوم، وجاء الشمردل أو الصديق الشاطر المتفوق المستقيم – ليكمل فسيفساء حياة وائل المثالية الطيبة.

أحب وائل زميله الشمردل، واعتبره أخًا، وتحدث عنه – بفخر وانبهار– أمام أفراد أسرته، وحتى أمام ضيوفهم ومعارفهم، وتشارك الولدان – معًا– الحلم بالمغامرات والفط، والنط، والعط، من دون المرور بتجربة، أو استشعار ما يتولد عن ملامسة الحياة – بالفعل – وليس تصوره أو تخيله.

وتعودت الجماعة أن تلتئم – أيام الجُمع أو حين الاستذكار والامتحانات – عند وائل في شارع محمد علي؛ حيث تتحفهم أمه بالحمام المحشي، وصواني البطاطس مع كتف الضأن، ثم يأتي دور المعلم راغب في إكرام وفادتهم حين يرسل أحد الصبيان إلى شقته في الطابق الثالث حاملًا صينية نحاسية كبيرة، فوقها بعض أطباق البسبوسة الساخنة الموصى عليها، والغارقة في كمية استثنائية من السمن البلدي، فيما ترصع وجهها الوردي بعض حبات اللوز المقشر المحمر، وقطع القشدة الطازجة السائحة النائحة.

انتمت الست فردوس الزمر والدة وائل إلى عائلة عريقة، طبع ملامح أفرادها، احمرار الوجوه الزائد، والشعر البني الفاتح، والأبدان العملاقة طولًا وعرضًا، والحواجب المقرونة المائلة إلى أعلى، وكأنها لبعض المنحدرين من أصول روسية، والموقعين بالحضور في دفتر أحوال المحروسة منذ عصر المماليك، وحتى اللحظة الراهنة.

وحين تقدم المعلم راغب السيوفي لخطبتها، اعترض كبار العائلة متزرزرين؛ لكون العريس غير مصريٍّ، ولكن صاحبات فردوس، وجاراتها أبدين شديد الإعجاب به، والهياج عليه، بما أشعر ابنة الزمر ظفرًا كبيرًا إن هي تمسكت به وقاتلت تقاليد وتراث عائلتها في سبيل تلك الزيجة.

وعاشت فردوس مع المعلم راغب على الطيب الطاهر، في كنف حنانه الغامر وأدبه الجم، وبلغ من فرط وجدها – عاشقة له – أن علقت قصاصة من ورق لف البسبوسة – الذي يعلوه رسم السيوفي بالطربوش الطويل والشارب المبروم – فوق فراشها.

تعودت أن تمضي ساعات يومها في انتظار فروغه من عمله في الدكان، مسكِّرًا ضلفتيه، صاعدًا إلى شقته في الدور الثالث؛ لتنخرط معه – مسرفة – في مطارحات غرام عارمة، تعزز إحساساتها بالنصر، والتمكن من اقتناص الرجل الذي افتتنت به صاحباتها.

وكان المعلم راغب ذا صوت جميل، ولطالما شدا ببعض القدود الحلبية لفردوس، التي تعودت رد الصنيع باستعراض مهاراتها المصرية في الرقص البلدي صارخ الإثارة، وقد استلهمتها وتعلمتها من مراقبة الأعاجيب التي تأتيها بعض عوالم شارع محمد علي وبناته في الأفراح والليالي الملاح.

وأحاطت فردوس والمعلم راغب ابنهما وائل بكل رعاية وتحنان، حتى كبر ودخل كلية العلوم، وأصبح بيته مكان لقيا أصدقائه، وتجمعهم في كل المناسبات، وصادرت تلك الإحاطة على تحليق الابن في فضاءات تجاوز حدود الأسرة.

واختصت الأم الشمردل باهتمام خاص، راجية أن يكون قاطرة تسحب ابنها – دائمًا – إلى مسار صحيح، وعاملته – وهي سليلة الحسب والنسب – بتقدير كبير على الرغم من تواضع أصوله ورقة حاله، مفضلته على بشير جار النبي، وعلي الششتاوي، وسمير التميمي، لقراحة الأولين، وقتامة الأخير.

.....

وسط الزمرة كان علي الششتاوي جار وائل في محمد علي، وقد تعود التسكع، متسندًا على أحد أعمدة البواكي، معاكسًا البنات، ومدخنًا السجائر، وضبطته أم وائل غير مرة، في إطلالها من شرفة غرفة نومها على الشارع الرئيسي، فأطالت انتقاده، والغمز في قناته كلما رأته مع ابنها.

علي الششتاوي هو حفيد أحد رموز حزب الوفد من أعضاء مجلس الشيوخ، وكثيرًا ما تاه – خيلاء – أمام أصحابه بتلك الصورة ذات الإطار المذهب التي تتوسط الجدار، في غرفة استقبال بيتهم، ويظهر جده فيها مرتديًا الكاكولة، وفوقها وشاح مائل تعود أعضاء مجلس الشيوخ ارتداءه في الصور الرسمية.

وشعر علي أن ذلك الانتساب السياسي والتشريعي، منحه قدرًا كبيرًا من التحقق، حتى لو اختلف وزن وحضور حزب الوفد الآن، وتلاشى نفوذه في صنع السياسة (حاكمًا)، أو التضاغط حولها (معارضًا) كما كان في زمن جده.

وربما اكتفى علي – في أعمق أعماقه – بما يضفيه ذلك الاختلاف عليه من تميز غامض، لا يسمح لأقرانه بالوقوف إلى جواره على قدم المساواة أو – حتى – توهمها، وهو ما تدعم على يد أبيه شحاتة الششتاوي مفتش اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم، الذي تقاعد خارجًا على المعاش جاعلًا ابنه شغلته، فما فتئ يسحبه إلى الإبحار في الماضي، والالتجاء إلى زمان ليس له علاقة بما يعيشه الشاب الصغيرأو يُجبر على الاشتباك معه يوميًّا.

رحلت أم علي إلى رحاب بارئها في أعقاب صراع طويل مع المرض اللعين، فغاب كابح أساسى لطالما منع شحاتة من كامل استفراس ابنه، واللعب المتواصل في دماغه.

احتجب الصوت العاقل لصفية رزق المحاسبة بوزارة التنمية الإدارية، والمثقفة التي استماتت في محاولة رد زوجها إلى الواقع، أو خلق تيار من الوعي في وجدان ابنها – يهمس له، أن تغيير البلد لا يتحقق تيهًا بوشاح الجد، أو عضويته في مجلس الشيوخ، وأن قيمة علي وتأثيره – حتى في الحزب الذي انتمى إليه أسلافه – تأتي من إحرازه مكانة حقيقية عبر مسيرة علمية ووظيفية ناجحة.

ولكن صفية – في سقمها – بدت بدرًا صار إلى المحاق، وخفت صوتها، ووهن بدنها، ثم مضت إلى بعيد.. بعيد.

ولم يعد الابن يرى الدنيا إلا من خلال منظار أبيه الذي أمضى يومه ساعيًا إلى مسجد مجاور لأداء الصلاة حاضرة جماعة، أو زائرًا المعلم راغب السيوفي مجالسًا على مقعدين أمام الدكان، ومثرثرًا حول حدود الداهية التي حاقت بمصر في كل المجالات، أو قابعًا في غرفة الجلوس بالروب والطاقية، يقرأ

الجرائد، ويتفرج على برامج التلفاز، ويسخط مبرطمًا، متوعدًا أشخاصًا لا يبين كنههم – في خطابه – بسوء المصير.

وكان علي يستمع – أحيانًا – إلى حصص التبرم تلك، ويهرب زائغًا – في أحيان أخرى – ليعيش حياة تليق بعمره؛ كلها شرب سجائر، ومعاكسة بنات، ولكنه ظل على افتخاره بصورة الجد، وأبهة ماضي العائلة، الذي لم يصادف له شبيهًا في عائلات أصحابه.

كان معنى الجد الذي تأسس وتكرس في دماغ الشمردل ووجدانه أقرب إلى فكرة البشير أو النبي.

الجد ليس كأبيه في المنوفية، وليس كأعمامه في الصعيد، وإنما هو شيء آخر بين البشرية والقداسة.

كل الأجداد – في نظر الشمردل – كانوا أصحاب سلطة قيمية، وأخلاقية كاسحة ومهيمنة، وكانوا مرجعيات للناس يقررون، ويقدرون، ويحكمون، ويفصلون، ويقبضون على عصي من فروع الرمان مذكرين بعدم الانحناء، والصلابة، والاستمساك بالكبرياء.

أحب علي صديقه الريفي، مزهوًا بصداقة الولد الذي يحترم الجميع تفوقه، ويتحدثون عن المستقبل الباهر الذي يفتح له ذراعيه، كما احترم التزامه، فلم يأت أمامه ما يخدش روحه المحافظة، وإن حكى بعضًا مما أحب الشمردل الاستماع إليه، واستعادته واستزادته من دون التورط في رأي، أو الكشف عن استمتاعه بالإنصات، وبما يستولده في نفسه ذلك الاستغراق المستعير تجارب الآخرين ومشاعر لذة واستمزاج.

obeikandl.com

أما الأخير في مجموعة شباب كلية العلوم فكان بشير جار النبي ابن العقيد محمود عبد النبي ضابط مباحث أمن الدولة، والذي جمعته وعلي شقاوة الشباب، وولعهما بمعاكسة البنات ومرافقتهن.

إذ اتكأ كل من الولدين على مسبب واضح للتحقق، واكتساب المكانة مبكرًا.

الجد عضو مجلس الشيوخ، والقطب الوفدي البارز في حالة الششتاوي، والأب الضابط ذو الهيبة التي تقطر نفوذًا ومنعة، وربما بعض إساءة استخدامهما كذلك، في حالة بشير.

ثم بعد التحقق وإثبات الوجود – عبر الانتساب العائلي – كانت الساحات رحبة تتسع لكثير لهو، وهلس، وانطلاق.

أحس بشير – منذ الصغر – هالة خطورة تحوط شغلة أبيه الذي لطالما أفاض حديثًا عن مهام يقوم بها لحماية البلد، كما استغرق محمود بك جار النبي أمام ابنه مبالغًا – كعادة الضباط – في نسج حكايا مدهشات عن الأدوار التي يقوم بها – شخصيًّا – في ذلك الإطار، الأمر الذي يدفع إلى اعتباره – في أقل تقدير – بطلًا لهذا الزمان.

شعر بشير أنه – كذلك – مسئول، أو مساعد مسئول يضطلع بمهام هي أخطر – بكثير – مما يشغل بال زملائه ورفاق دراسته، ولكن محدودية فهم الفتى، وصغر عمره، واستعلاء أبيه، وجموحه إلى المنظرة في المطلق، حجبوا عنه إدراك الرابطة بين السلطة الاستثنائية الطارئة للوالد، وبين حضور القانون أو معنى العدالة، فشعر بشير – دومًا – أنه فوق القانون، وعابر لإلزامات المجتمع، وأن القدر قيد أبيه وأسرته – بالتبعية – لأمور خطيرة

لا يعرف – على وجه التحديد – طبيعتها، وأنهم – لذلك – لا ينبغي أن يخضعوا لما ينصاع له الآخرون نفسه، وإلا فما هو الفارق بين (الوطنيين) وغيرهم.

وكان الاستعلاء – بالضبط – هو مدخل علاقة بشير بالشمردل؛ إذ لم يك يحبه، ويرى فيه فلاحًا، رثًّا، ومقرفًا، وكره تمييز الأساتذة له، أو انبهار الزملاء به، فهو – في نهاية المطاف – ولد صَمَّام، معقد، ثقيل الدم، ذو شارب مسخرة، واسم غير واضح المعانى أشبه بما يرد في حواديت أمنا الغولة، أو عقلة الصباع، خام وغشيم ليس له في صنف الحريم، فضلًا عن كونه الصديق الأقرب للولد سمير التميمي المتطرف المريب.

وكان بشير – في أعماقه – مؤمنًا بأن أمثال الشمردل ينبغي أن يُسخروا كل طاقاتهم لخدمة أبناء الرجال الذين يحمون البلد، ويواجهون المؤامرات التي تحاك ضده في الظلام.

وأراد الولد – دائمًا – استغلال صاحبه، متكئًا على شهامته الفلاحية، فطلب إليه نسخ محاضرات، وشرح دروس، وتسجيل اسمه في مجموعات بحوث من دون أن يؤدي فيها عملًا، واعتبر – بصلافة داخلية ورياء خارجي– أن تلك جميعًا بمثابة واجبات هي أقل ما ينبغي أن يقوم به الشمردل إزاء ابن لبطل.

وطور بشير إحساساته بأهمية دور أبيه إلى مشاركات عملية حين كان يندمج في قراءة مدونات شبكة المعلومات العنكبوتية، ومطالعة روابطها على الكومبيوتر، مثرثرًا أمام والده – على قدر فهمه – بما يسعد العقيد محمود بك ويدفعه إلى تربيت كتفي ابنه بفخار، وطمأنته إلى أنهم – في الشغل – ليسوا

نائمين، وهم قادرون على سماع دبة النملة في هذا البلد، وحمايته من الخونة والعملاء.

كان حضور الأب طاغيًا في بيت بشير مثلما كان في منزل علي الششتاوي، وساعد غياب الأم في كليهما على وحدانية تأثير الرجل.

ولكن أمل راشد – أم بشير والطبيبة في مستشفى المقاولون العرب – لم يغيبها المرض أو الموت، مثلما حال صفية والدة علي الششتاوي، وإنما غيبها الطلاق.

إذ وضع الانفصال بينها والعقيد محمود جار النبي حدًّا لعلاقة زوجية لم تك – يومًا – مستقرة.

تزوجت أمل من محمود مرغمة بإلزامات قرابة، وقهر عائلي جماعي، وثقافة اعتياد وقبول بالأمر الواقع.. وعذبها ابتعادها القسري – عبر الزواج– عن علاقة حب ربطتها بأحد زملائها في كلية طب قصر العيني، وهو ما شاع وذاع في محيطها كله، ثم ودودت به إحدى قراشانات العائلة إلى محمود – بعد الزواج مباشرة – كيدًا في أمل، فتعقب الزوج المتنفذ ذلك الحبيب القديم، مستخدمًا كل سلطاته، والقوة المادية والرمزية المروعة للمؤسسة التي يعمل بها، محيلًا حياة الرجل جحيمًا حتى سافر مهاجرًا إلى بريطانيا، ولم يعد إلى مصر أبدًا، في حين دفعت أمل ثمن ذلك الارتباط القديم – كل يوم – تبكيتًا وزجرًا، وعنفًا في بعض الأحيان، ولم يشفع لها ابنهما الذي أنجبته وشارف سبعة عشر ربيعًا، أو مرور الزمن الذي لم يقو – فيما يبدو – على محو إحساس محمود بك جار النبي بأن هناك غريمًا لم يطاله، ليسحقه ويمحقه.

وسمح محمود لأمل أن ترى ابنها في الإجـازات الأسبوعية، إلا أن الولد – نفسه – بدأ يتملص من ذلك الإلزام قاصرًا علاقته على الاتصال الهاتفي ما تيسر، متخلصًا من النصائح والتوبيخ والملامة، ومندفعًا إلى حياة ملؤها السعادة في أندية الليل، وحلبات الرقص، وبعض الشقق المفروشة في المهندسين والعجوزة، منتهزًا غياب الأب، وتدليله إمعانًا في اجتذاب الابن وعزله عن أمه.

وتقاسم بشير جار النبي وعلي الششتاوي بعض علاقات شائنة في رفقة الحريم، ونوعاها بين جميع المستويات والطعوم والأعمار والأجواء، مضيفين وشيجة جديدة، تربط بين حالتيهما المزاجية والأخلاقية، وهو ما أصر بشير – على نقيض صاحبه – أن يمنع أخباره عن الشمردل، استبعادًا واحتقارًا.

ولكن فتى مِعجِبة حضر إلى ساحة إحدى هاتيك العلاقات من بوابة لم تخطر على قلبه، أو ترد على بال بشير.

كاميليا مبروك..

الممرضة الفاتنة، ذات الأنوثة الصارخة التي لاحت لشمردل، عبر غابة من العلاقات العائلية والاجتماعية شديدة الاكتظاظ والتعقيد، بوابتها شقيقتها وداد زوجة الأسطى فتحي السيد القاطن شقة الدور الأرضي في بيت الششتاوي.

إذ أطلقت بنتا الأسطى فتحي خيالات ملتهبة في نفسَي بشير جار النبي وعلي الششتاوي، بجمالها الشاهق الجاهل، والمحرض – بإلحاح – على الرذيلة لا غيرها.

أسماهما الأب: نادية وشادية، تيمنًا بالممثلتين ذائعتي الصيت، وأنهت نادية مسارها الثقافي بالسكتة التعليمية حين تحصلت شهادة قبول الإعدادي، على حين استمرت شادية مواصلة حتى قبضت على دبلوم التجارة، واستقرت إلى جوار أختها في شرفة المنزل تراقبان الرائح والغادي، أو تفتعلان مشوارًا وهميًّا لتنزلا معًا إلى الشارع، موسعتين المتعة استمتاعًا بمعاكسات الشبان لهما، وقلة أدبهم.

كانتا نسخة من أمهما وداد بنصها وفصها.. نفس المقاييس البلدية للجمال.. نفس العيون المترعات بالقباحة التي طال قمعها.. نفس الرغبة في تحوير أية عبارة في حديث أو غنوة، إلى مسار يتسم بالخروج والحسية.. نفس ذلك القوام الممتلئ إلا قليلًا.. نفس ذلك الصدر الشامخ الموصى بإبرازه ما استطاعت صاحبته إلى ذلك سبيلًا.

عاشت شادية ونادية – في بيت أبيهما – تحت ضغوط كبت عظيم، وتعود الرجل – ضمن ثقافة كسر ضلع للبنت – أن يضربهما بخرطوم مطاطي كما صبيانه في الورشة، وهو ما كان ديدنه – كذلك – مع وداد في أيام زواجهما الأولى حتى اعتنقت عقيدة الطاعة وتم له نصر الله والفتح، فهو لم يدرك – وعبر تراث عائلته أبًا عن جد – طريقة أخرى للتربية أو التفاهم، وبخاصة مع عجزه عن هندسة أو بناء منطق كلام أو حوار يعكس ما يجيش في صدره من انفعالات؛ إذ كان يشعر بأشياء كثيرة جدًّا، ثم لا يجد أن في مقدوره التعبير عنها كلامًا، فيتلعثم، ويتلجلج ويتزرزر على البنتين ثم يضربهما وسط الصرخات والسرسعات، والارتعاشات، والدموع، والجري، والقفز والاختباء في الحمام، والمطاردة واللهاث.. حتى يتفصد الرجل عرقًا، وتخور

قوته، فيتهالك على أحد المقاعد، مستغفرًا ربه، ثم يقوم ليتوضأ ويصلي مواصلًا طلب الصفح من المولى.

أحب الأسطى فتحي بنتيه بجنون وترقرق عطفًا وتحنانًا وإشفاقًا إزاءهما، ولكنه خشي عليهما من الهواء الطائر، وشعر أنه لو لم يربهما فسوف تضيعان في هذا الزمان الوسخ المخيف.

ولم يثمر تزمت الأسطى وقسوته أو خوفه على شادية ونادية إلا نزوعًا حارقًا تلبسهما للهروب من سجن المنزل، ومعانقة الحرية على أي صورها، وعمدت وداد – أحيانًا – إلى تليين دماغ الأسطى فتحي كي يُفرج – قليلا– عن البنتين، وهربتهما – أحيانًا أخرى – وقت غياب الأب في الورشة؛ لتخرجا وتفكا عن نفسيهما.

.....

استماتت علي وبشير في محاولة اصطياد البنتين، واستدراجهما خارج حدود المحمية الطبيعية لشارعهم المكتظ بالأصدقاء والجيران والأقارب، وبما صادر أي فرص للاقتراب الآمن ذي الجدوى.

ولطالما تاقت البنتان إلى التجاوب مع مشاغلات الولدين، إذا صادفاهما في الشارع، متأهبين لدخول بناية السيوفي، ثم لا تلبثان أن ترتدا صعقتين، هامستين في ارتعاش، أو ضاحكتين مع وضع راحة اليد على الفم خشية الانكشاف، خاطفتين نظرات سريعة إليهما كلما تيسر، مترامقتين ومندمجتين في ثرثرة عيون طويلة وصامتة.

عرفتا – عبر المراقبة – مواعيد قدوم علي وبشير إلى بيت وائل أيام الجمع، وانتظرتا تلك الأوقات كأيام العيد، فيما الشوق، وما يشبه الرغبة، يتأججان

في صدريهما نيرانًا لها شهيق وهي تفور، وتقلبت أيامهما بين ساعات لُقْيَا خُضْرٍ من بعيد، وأُخر في الفراق يابسات ومن بعيد كذلك.

وفي إحدى المقابلات التي رتبتها محاسن الصدف، التقطت نادية – وقد كانت الأجرأ والأكثر جسارة – ورقة من يد بشير حين مرت بجواره في الشارع مع أختها، فيما لطمت شادية على خديها – برفق – مرعوبة كأن الرجفة توشك على أخذها، ومالت كلتاهما على الأخرى متسندة، فيما تداخل الخطو، وطفقتا تودودان، وتهمسان في مزيج هو بين السعادة، والخوف، والمغامرة، حتى دلفتا إلى مدخل عمارتهما، فتوقفتا منتحيتين جانبًا في بئر السلم، متلفتتين، شاعرتين بأن الناس – أجمعين – يعرفون الأمر، ويضمرون في سرائرهم نوايا فضاحة ديدنها التجريس.

قرأتا الورقة مرتبكتين – عدة مرات – حتى سيطرتا على رعشة بدنيهما، واجتياحات الخوف داخلهما، واستعادتا التحكم في ذهنيهما المشتتين، مستوعبتين ما خط الولدان أو أحدهما، وعرفتا أن منهما الذي يدعى بشير، وآخر يسمى عليًّا، ولكنهما غرقتا في حيرة التفرقة والتمييز؛ إذ لم تقدر إحداهما على تحديد اسم الولد الذي اختارته لنفسها، وإن رغبت نادية في ذي الشعر الناعم الذي أعطاها الجواب، وخلفت لأختها الآخر، مقنعتها بأن روحه تشبهها، وبأنه لم يرفع نظره من عليها بالذات.

كتب علي وبشير إلى نادية وشادية – بعد مقدمة عاطفية ساذجة وإيهامات نصف بلهاء – أنهما شعرا إزاءهما برباط وثيق منذ لحظة اللقاء الأول بما حارا في تفسيره، ومنعهما الاسترسال في طاعة إلزامات التحفظ والتردد، ولكن أحد الولدين لم يحدد في الخطاب – بالقطع – أي البنتين تمناها، إذ كانتا

– بالنسبة لهما – بلا اسمين، لا يعرفان نادية من شادية، بل ولا يعرفان أنهما شادية ونادية من الأصل والأساس.

طلب الشابان الصغيران – في الخطاب الذي سطراه – من الفتاتين أن يلتقياهما في وسط البلد بعد يومين في السادسة عند (الآميركين)، ثم يدخلون سينما (كايرو) التي تعرض فيلمًا رائعًا اسمه: (امرأة جميلة) لچوليا روبرتس، وتجاوبت نادية، وترددت شادية، وكالعادة تغلبت الأكثر إقدامًا، وساقت أختها إلى الموعد مع الشابين، حيث تجلى ميل كل من بشير ونادية إلى بعضهما، فيما تحصل على نصيبه المستحق من القسمة في شادية.

ووسط تطور سريع شهدته الصلة الناشئة بين الأولين، وتلكؤ ثم محاكاة ومجاراة من الثانيتين، بدا وكأن وقائع علاقة عاطفية على شفا الحسية، توشك على الانطلاق.

وتكررت لقاءات العشاق الصغار، وكانت دور الخيالة مسرحها الأكثر تكرارًا؛ لكونها تسمح وسط ظلامها، والانشغال الافتراضي عند روادها بما تعرضه من أفلام، ببعض قلة الحياء أو الكثير منها؛ إذ فيها لا تلتقي العيون بالعيون مورثتها الخجل، فضلًا عن أن معظم حضورها – خاصة في الصفوف الخلفية – جاءوا للأغراض نفسها، واندمجوا في الطقس ذاته، ووجد علي في تلك المغامرة الجديدة ما يحكيه لأصحابه سمير التميمي ووائل السيوفي والشمردل، فاكتفى الأول الذي أسمته الشلة (الشيخ التميمي) بترديد: «ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون»، على حين استعاد الثاني واستزاد كل التفاصيل المثيرة، وعاش فيها، عوضًا عن حرمانه بسبب اعتقال الأسرة لقدرته على تجريب التجارب في حيز البيت، ومحل البسبوسة، وشارع محمد علي، وكلية العلوم.

أما الشمردل فكان – باستمرار – أكبر من رفاقه وأكثر حكمة، استمع إلى ما حكاه علي بشغف، ولكنه لم يتورط فيما هو أكثر؛ إذ كان لديه هدف ينحصر في التفوق العلمي وسيلته التي يبز بها أقرانه ويتفوق عليهم، ومنعته تلك الغاية الواضحة أن يبتعد عن معنى الانضباط أو الاستواء والاستقامة كفرع الرمان الجاف الصلب الذي يعرفه حق المعرفة.

حكت نادية لبشير كل شيء عن نفسها؛ إذ كانت ثقافتها الشفاهية – بحكم الجهل – تفرض أن تكون ثرثراتها المتواصلة أداتها الوحيدة للتعبير عما يجيش بنفسها، كما تعد وثائق اجتماعية وإنسانية تؤرخ – ببساطة وأحيانًا بسذاجة – لأحداث حياتها وتطوراتها.

أخبرت عشيقها الصغير عن أن أباها الأسطى فتحي السيد – الميكانيكي العتيد الذي يناديه أصحاب الورش في حي معروف: (ملك الفيات)، هو زوج أمها الثاني، وأنها اقترنت قبله بسنتين برجل اسمه هشام البابلي ابن وكيل لوزارة المالية وسيدة نمساوية تعرَّفها الأب أثناء دراسته في الخارج.

وامتهن هشام التجارة، وساعده أبوه – بحكم درايته بقوانين الضرائب والجمارك – على إتقان ما هو شرعي، ومعرفة الدروب السالكة إلى ما هو غير شرعي.

وافتتح الشاب أكثر من محل في وسط المدينة، لتجارة البضائع المستوردة، واستعمل طابورًا طويلًا زاخرًا من الأتباع في السفر إلى بيروت، والإياب إليه محملين بحقائب الملابس، والعطور، وأدوات التجميل التي احتشدت في دكاكينه.

اختار قلب هشام وداداً، بعد وساطة أحد أصدقائه كيما تعمل معه، وبهره جمالها اللاذع، الحريف الموحي، فتزوجها على الرغم من إملاق أسرتها الموشكة أن تكون معدمة، وغياب أي حضور لمعنى التكافؤ الاجتماعي بينهما.

واعتبرت أم وداد أن النصرة التي أنصفت بنتها هي بشارة خير عميم سيحل بكل من شقيقتيها.. الوسطى فريال، والصغرى كاميليا.

وعاشت وداد مع هشام شهورًا من الرغد والسعادة، والسهر والعربدة وسط زمرة من رفاق الزوج وزملائه التجار، تعودوا التحلق – كل ليلة – حول منضدة كبيرة في أحد الملاهي الليلية بفندق من الدرجة الثانية في شارع الجمهورية، حتى لاحظت – بغتة – ما اعترى الزوج من تغييرات انقلابية لم يدركها متدرجًا، وإنما بدت ثمرتها كما لو كانت نضجت بداخله منذ زمن بعيد، واختارت لحظة بعينها، لتعلن عن حضورها، وكامل استوائها.

أحالت تلك التحولات دنيا هشام مزقًا، وأطاحت سعادة وداد مشيدة عالمًا بديلًا، تناوب كل من الإعتام والقتامة إنشاب الأظافر والأنياب في لحم ساعاته وأيامه.

أطلق هشام لحيته، واعتزل أصدقاءه وسهراتهم، وكره عمله وخاصمه، وأقلع عن تشغيل جلابي البضائع من بيروت وذبلت متاجره وبدت خاوية على عروشها، واكتسى حديث الرجل الذي كان – إلى حين قريب – محبًّا للحياة والأنس، مسحة من الغلظة والجفاف، والرغبة في محاصرة وخنق كل مظهر فرح من حوله، فأحال حياة وداد مأساة، مطالبها بالتحجب وعدم الخروج من الدار، أو فتح الباب للأغراب، ونازعًا التلفاز والهاتف من البيت، ومطيحًا ببعض الصور الزيتية من فوق الجدران، آمرًا أحد صبيانه

بنقلها إلى مخزن للبضاعة، ثم ضاربًا زوجته – بوحشية – إذا عرف بمخالفتها أيًّا من نواهيه المحدثة.

صبرت وداد على ما ابتليت، وأمضت إلى زوجها حقبًا، آملة راجية أن يعود الوعي الغائب إلى هشام، فلما يأست وشعرت أنها في العذاب محضرة، طلبت الطلاق متدرعة بحماية الأسطى فتحي السيد الميكانيكي، الصديق الوحيد الذي أبقى هشام عليه، كونه يسهر يوميًّا مع الشلة، ولكنه لم يشاركها التهتك والمسخرة، غير موسوم على أنفه كذوي المعصية.

وافق الزوج على الطلاق مخلفًا للزوجة الشقة التي جمعتهما، في نهاية صف العمارات الخديوية عند التقاء شارع محمد فريد والشيخ ريحان قبل أمتار من سوق خضار البلاقسة.

وعمد الأسطى فتحي – في الشهور التي تلت الطلاق – إلى السؤال عن وداد على نحو ازداد انتظامه وتقاطره، ثم بدأ في الزيارة إمعانًا في الاطمئنان والمساندة، حتى بلغ حدود غرفة النوم مجاوزًا إلى الفراش، فاطمأن وساند ما وسعه أيهما، وعشق وداد على نحو لم يسمح له بالتفكير في المفارقة، فتزوجها على سنة الله ورسوله، شريطة أن تترك شقتها إلى بيته في شارع محمد علي فهو رجل حر، لا يريد أن يقطن مِلك طليقها، وانصاعت وداد إلى رغبة الأسطى، بعد أن قامت بتأجير شقتها إلى رجل سعودي اسمه عبد الرحمن العنبري.

كانت كاميليا الأقرب إلى قلب وداد بين شقيقتيها، وعاملتها كابنة لها إذ كانت في الثامنة حين أنجبت بكريتها نادية.

والتصقت كاميليا بأختها تعودها – زائرة سائلة – كل يومين أو ثلاثة، حتى بعد التحاقها معهد التمريض، ثم شغلها في قصر العيني.

شعرت كاميليا – دومًا – أن شقيقتها هي مرجعيتها الأولى في الدنيا، وسندها الحقيقي، ومرفأها الذي تلتجئ إليه حين تستبد الأنواء، وتتلاطم الأمواج، فكأنها فراتها العذب وسط ملح دنياها الأجاج زائد الملوحة.

بيت الشقيقة في شارع محمد علي صار أقرب إلى معنى السكن عند وداد من منزل أبيها في سكة النبوية المتفرعة من درب سعادة في باب الخلق والقابع وراء مديرية أمن القاهرة، وعاشت البنت في عالم وداد وصاحبت جيرانها، وأصدقاءها وعلى رأسهم الست فردوس زوجة راغب السيوفي، وتعودت الإطلال عليها بين وقت وآخر.

ارتبطت كل من نادية وشادية بخالتهما الصغيرة معتبرتيها رفيقة جيل، مؤتمنتيها على أسرارهما وأخبارهما، مصاحبتيها – أحيانًا – إلى زيارة الست فردوس، التي اكتسبت عندهما أبعادًا كبيرة في أعقاب ذلك الارتباط الناشئ والمتطور سريعًا بينهما وبشير وعلي صديقي ابنها وائل السيوفي.

وحين اعترفت البنتان لخالتهما بكل وقائع علاقتيهما بالولدين، عمدت كاميليا إلى إمعان النظر في أصحاب وائل، حين يدخلون عليها – أثناء زيارة للست فردوس – ذاهبين أو آيبين، محاولة سبر الأغوار وكشف النوايا؛ إذ كانت – بالقطع – أكثر خبرة من البنتين كونها تعمل في مستشفى يرد عليها فيه كل أصناف البشر وطوائفهم.

ولكن ما توقفت الخالة عنده، لم يكن بشيرًا أو عليًّا، اللذين هما – في نهاية النهار – شابان خفيفان كمعظم من في عمريهما، وإنما كان ذلك الشمردل الذي استبقت رؤيته لها، حكايات وائل لأمه عن تفوقه وعبقريته، وانبهار أساتذة كلية العلوم به.

لم تطاوع كاميليا الوسوسات الأمارة بالسوء، أو تتجاوب مع همس غواية السخرية من الاسم والشارب، وأحست أنها بإزاء مشروع رجل كبير للغاية يوشك الناس على تدشينه وإطلاقه.

لم تستطع مقاومة نظرة العينين الملتمعتين بالفطنة والذكاء، وبهرتها تلك المعجبانية الفلاحي، وخيلاء الأفندية التي يرفع بها رأسه إلى أعلى، ويشد ظهره مفرودًا كالوتر.

.....

أطل الشمردل برأسه – في خشية – من بين كتفيه وهو يصافح طابور العزاء الطويل عند باب جامع جركس.

وواصل الدكتور عبد العزيز شوقي ووزراؤه – الذين مردوًا على النفاق وأدمنوا كتم المشاعر – أداء نمرة التأثر البالغ، وكان أكثر المتظاهرين بالتأثر حرارة واندماجًا، وزير البحث العلمي، الذي أوشك على متاركة منصبه؛ ليحتل الدكتور بشير مقعده ويقبض على حقيبته، لولا ستر من الله ولطف كبير.

الجميع سلموا على الشمردل بأكف رخوة، فاقدة السخونة والحماس، وبنظرات استغراب تكاد تسائل فتى مِعجِبة عن أسباب وجود شخص رث مثله في ساحة هذا الحدث الجليل، ووسط أكابر الناس المشيعين أحد رموز البلد، وأيقوناتها ذائعة الصيت، راجحة المكانة.

ومع كل مصافحة، كان دماغ الشمردل يغوص أكثر بين كتفيه، وتنحني رقبته كسيرة على صدره، كما لو كانت يد خفية تزق رأسه عند قفاه إلى أسفل.

جال الرجل – ببصره الزائغ بين عناصر مشهد كانت – كلها – رجومًا تلسعه، ورأى بلدًا بأكمله جاثيًا على ركبتيه أمام جثة محتال ميت، حانيًا عليه، موقرًا، وذارفًا الدمعات، مكلومًا على الخسارة العلمية التي مُنيَ بها.. وهو البلد ذاته المشيح بوجهه عن الشمردل، محقرًا، ومتشاغلًا، وراغبًا – الآن بالذات وسط مشهد الوداع النبيل – التملص منه، والتخلص، كيما يحافظ على نقاء الصورة، ونظافة مسرح العمليات.

انفرط عقد كل شيء بعد مصافحات العزاء..

تزاحم أفراد الموسيقات العسكرية منصرفين في طريقهم لصعود سيارات الجيش التي زمجرت محركاتها في ضجيج كبير، فيما وقع حدوات الخيول التي قادها الجند متمهلين إلى الدراسة – حيث إسطبلاتها – يطرقع في إيقاع يعكس بهجتها بانقضاء المهمة الرذيلة وانتهائها.

وتدافعت المركبات السوداء الفخيمة لكبار المسئولين كيما تلتقطهم، تسبقها الدراجات البخارية وسيارات الحراسة، مغادرة في هرولة، تناسب حرص الوطن على وقت رموزه الذين قيضهم المولى – ربما – لنا، وفي الأرجح علينا.

وصفر عساكر المرور، وزعق ضابط الداخلية، إمضاء بالحضور في المشهد لتأكيد مساهمة وزارتهم في تسليك انصراف المسئولين، وسراة البلد وأعيانه، بعد الجنازة.

وشعر الشمردل أنه لا شيء وسط ذلك كله.. لا شيء.. لا شيء.

قبضة من تراب تذروه الرياح، أو مزقة من نسيج بال نفضتها مقدمات الأحذية بعيدًا، أو جثة حيوان نافق داسته مئات من عجلات سيارات

مسرعة متعاقبة.. فازداد انحناؤه، وتلفت حوله عله يصادف عينا تنظر إليه، تعيره التفاتًا، أو تعترف بوجوده.. أو تنتبه إليه.. تومئ.. أو ترنو.. أو ترمق.. أو تحدج.. وصادف عينها..

كاميليا..

شَخَصَ إليها الشمردل – ساهمًا – حين لمحها متوسطة ثلة من النساء متشحات السواد، مرتديات النظارات الغامقة، حمر الخدود والأنوف من فرط البكاء، مبرزات خصلات الشعر الأصفر والأحمر من تحت طرح الحداد واقفات على طوار يجاور المكان الذي كان طابور العزاء، اصطف فيه منهيًا الموكب الجنائزي المهيب.

بادلته النظرات فيما ابتلعها إحساس طاغ مسيطر، استدعى – في التو – شلال ذكريات، وعفاريت قديمة تقافزت حولها – في لوثة – مثبتة مرايا صغيرة أمام وجهها، مجبرتها على النظر إلى نفسها الأخرى في تلك اللحظة بالذات.

كاميليا مبروك الطيب..

حبيبة الشمردل البتانوني.

أرملة الدكتور بشير جار النبي، وشريكته في الجريمة طويلة الأمد التي ارتكبها بعقل وقلب باردين.

2

«الورد كان شوك.. من عرق النبي فتح
ما شا الله وصلي ع النبي
يابت مالكِ وماله
ضربة تغيب بالك عن باله
أمدحك يا نبي
وأمدح مجامك
فيك قبه شريفه وخضرااااه»

.....

ارتج بدن الشمردل – مرتعدًا – فيما تردد في جنبات وجدانه صدى تلك الكلمات التي علمت أفراح «مِعجِبة» وليالي زفاف بناتها وأولادها، ورسمت صور حلمه الذهبي، قبل الكارثة التي حاقت به، ثم صارت نقطة إشارية دالة على ما كابده بعدها.

أطال الفتى عناقه أمنيات غواليَ، وتبدى لنفسه – في غمرة خيالاتها – فارسًا مغوارًا يحتفل بعرسه في ليلة ليست كسواها، مرتديًا ثوبًا من الجوخ على أبيه، ناعمًا كوبر الجمل، لا يُلبس إلا في جنازات الرموز، أو صلح الثأر،

obeikandl.com

أو موكب الزفاف، راكبًا جوادًا مطهَّمًا، له سرج موشًّى بخيوط الذهب والفضة، نسج عليه صانعه كلمات دعاء عن الأولين، راجيًا بركة حضرة النبي تحل على الراكب، وتلازمه، وتنصره، وتمكنه من العدوين، فيما يمسك الفارس بمقبض سيفه – مجرده من جرابه – مثل أبطال السير في الرسوم القديمة لصندوق الدنيا، والفراغ حوله يحفل بزحام كبير، ويغص بأناس يحملون الدفوف وسعف النخيل مرددين:

«وكَيْفَ لا يُحْسَدُ امْرُؤٌ عِلْمٍ.. لَهُ عَلَى كُلِّ ذِي هَامَةٍ قَدَمُ».

طال شوقه أن يتفسر حلمه واقعًا مستقرًّا على الأرض، فيحمل حبيبة القلب كاميليا على ساعديه، ملفلفها في حرير أرجواني كأنه النارنج في الأغصان، مهديها القمر قرصًا من الفضة تحتضنه لاثمة بشفتين مكتنزتين دافئتين لم تخلقا إلا للقبلات، مطيلة النظر إلى وجهها الجميل حين تنعكس صورته على السطح اللامع فتزيده أبهة وضياء.

أراد أن يكوم النجوم في حجرها، فتلضمها عقدًا تعلقه في رقبة كالجمار، شهية، طازجة، بيضاء، مبتغاة، وليتدلى على منبت صدر نافر كالمانجو الزبدية، أو تصوغه حزامًا على جيدها، يضغط – مؤكدًا سِوتها الناعمة كعجين خمران، وردفيها اللذين يستكملان – فيها – مسوغات أنوثة لم تك يومًا ملف مناقشة أو لبط.

على نحو ما أورثته «مِعجِبة» كان الشمردل يغرق نفسه – عن قصد وتدبر – في طقس ليلة زفاف أراد أن يبيت نجمها الساطع، وأن تكون كاميليا أميرتها التي تتعلق بها الأبصار.

لف الولد كتفيه بحرام اللحظة المنتظرة، مكتسيًا ثراءه الصوفي ذا النقشة الفطرية المدهشة والبديعة، عائشًا الأجواء، مستطعمًا الطعوم.

أكواب الشربات الأحمر على الصواني النحاسية، وزغاريد النساء، وطلقات المقاريط تتقاطع في سماء البلد، فيما الرجال يدورون على المعازيم بالسجائر، عازمين، مُكرِمين.

رائحة يزفها بكركي القرفة على النار، تخالط عبيرًا تشيعه أنفاس جوزات الحشيش، وصخب أغانى البنات – في تحلقهن حول العروس – ينبعث من صحون الدور، مفعمًا بالخيالات الجنسية التي فجرتها المناسبة في نفوسهن، فقمن يرقصن حافيات – بعفرتة – هازات كل ما يحتمل هزًّا في أجسامهن، متجاوبات مع الإيقاع الثابت السريع، الذي بدا دقات زار عضوي تفرغ فيه النسوة طاقاتهن الكامنة، بعد طول اعتقال في زنازينَ قضبانُها طهارة صوتية، وعفة شكلانية، لا تسمح بتحريرهن وتسريحهن إلا في حقول الأذرة، أو فُرُش الزوجية، مستغشيات أثوابهن مخفيات ما هو تجريبي غير شرعي، متبرجات معلنات ما هو اعتيادي وشرعي.. أو مستعوضات في الخيال وسط هاتيك المناسبات البهجة الموحية.

فإذا هلت الغازية وطلت، راقبنها من نوافذ الدور، الصغيرة مثل قمرات المراكب، شاعرات أنها تنوب عنهن فيما أردن إتيانه أمام الرجال، وحين تغادر يواصلن الحرك، والفرك، والتلوي، مملتئات بحسد العروس على الهناء المقيم الذي ستتمرغ في فضائه تلك الليلة، زالقاتها بأبصارهن، نضَّاحة عيونهن بالغيرة والموجدة.

الرجال يمتشقون عصيَّ الرمان، رافعينها مستلهمين أسطورة نجاتي ملك التحطيب في دشنا، وأصوات الذاكرين المنشدين شعر الصوفية، تخالط صدى نداء الجنس الجماعي للبنات، الصارخات على الرغبة في شكل غناء الفرح:

«يامه حمامي إتخلط ويا حمام الواد علي.. طلعت له لابسه الأحمر.. ونزلت له لابسه الأحمر.. ولقيت حمامي بيتمخطر ويا حمام الواد علي».

.....

«عيني جرحت وجنتيه بالنظر من رقتها فانظر لحسن الأثر.. لم أجن وقد جنيت ورد الخفر إلا لترى كيف انشقاق القمر.. يا الله.. أغثني.. يا الله.. ياحي».

.....

«درج الحمام ع الكوم.. ولا فيش جواز اليوم.. درج الحمام ع الجنا.. ولا فيش جواز السنة.. كلوا بعضكوا يا بنات».

.....

«يا منجي موسى ومحمد وإبراهيم الخليل، وذي النون.. لا إله إلا أنت.. سبحانك.. إني كنت من الظالمين».

.....

كبر حلم الشمردل، وحلق – كل يوم – في مدار جديد، ولكن الأيام – متسللة في العتمة – كانت تخفي له طعان الخيانة، ومذابح الآمال، ومَصارع الأنفة والكبرياء، والمكانة أجمعين.

خرست المزامير والطبول، وسقطت الرايات في أوحال روبة عفنة، وخرجت الأقمار عن هالاتها، وأظلمت الأنوار الملونة الفرحانة باتفاق تواطؤ خسيس وقعه مجهولون – معلومون، وغشت الولد أيام خافيات الألوان، ومساءات كمثل ليل التمام قصرت عن بلوغ كآباتها الأوهام،

obeikandl.com

ولطمت النسوة الخدود داهنات الصدور بالنيلة الزرقاء، منتحبات في عويل يشرخ القلوب.

.....

ظلت الصور تتداخل في عيني الشمردل متقلبة بين مشهد أرملة العالم الراحل لابسة الحداد، محل توقير رجال الدولة وعسكرها ومماليكها في لوحة الجنازة المهيبة، وبين حلم الفرح الذي لطالما زقزق في دماغه يوم أن كان لكاميليا وكانت له، وخاب رجاؤه في بلوغه أو حتى ملامسته، فاكتملت تعاسته من أي نقصان.

.....

استوت كاميليا على المقعد الخلفي لسيارتها المرسيدس السوداء ذات الستائر الغامقة، وإلى جوارها جلست بنتاها.. رنا وهنا الطالبتان بالجامعة الأمريكية.

اندمجت السيدة – التي حملت حديثًا رتبة أرملة – في إصدار طواقم حافلة من التعليمات والأوامر والنواهي – عبر هاتفها المحمول – مالئة المسافة الزمنية بين وسط البلد وحي «ميراج» في التجمع الخامس بما يبدو أنه إنجاز أعمال، أو استغلالٌ للوقت، فيما سائقها يصارع العرقلة المرورية بمناورات خطيرة وعصبية – فيها من نفاذ الصبر أكثر مما فيها من المهارة – مصيخًا السمع متنصتًا على مكالمات كاميليا متعجبًا – في سريرته – من صنف الحريم المنتمية تلك المرأة إليه، والتي لا تذرف – وهي وبنتاها – الدموع أو تنتحبن، أو ترقع إحداهن صوتًا ولو على سبيل المظاهر، فكأنما قصر فعلهن عما وجب.

إعادة تقسيم الثروة، واستعادة السلطة كانا أمرين شغلا كاميليا بعد أن دهمتها وفاة الدكتور بشير منذ ساعات بالسكتة الدماغية المباغتة، فعمدت إلى التحرك السريع متسلحة بترسانة معلوماتها الكاملة عن زوجها الذي أحاطت بكل ما لديه خُبرًا.

أرادت الاستيثاق من أن كل الإجراءات تسير على نحو يضمن انتقال الفلوس السلمي إليها وبنتيها، فضلًا عن مقاليد إدارة المشروعات، من دون ظهور أي من أفراد عائلة العالم الراحل في المشهد على نحو مرذول سمج، لم يعد مطلوبًا على إطلاقه أو بتفاصيله.

عاشت عمرًا – بأكمله – في كنف الدكتور بشير جار النبي متجاوبة مع نداء الارتقاء الاجتماعي، مطيحة في منعطف – لم يك تاريخيًّا بالضرورة – كل ما يمكن نسبته إلى معنى العواطف الحقة، أو المشاعر الصادقة، متقبلة مسحة الآلية الباردة الصارمة التي سادت علاقتها بزوجها الراحل، ومبتلعة لسانها وغضبها في أعمق أعماق جوفها، وهي تسمع في كل المنتديات والتجمعات عن نزواته النسائية اللاهبة والصاخبة، التي تناسلت وتكاثرت على نحو جعل الانحراف هو الأصل في حياة زوجها، فيما بيته وزوجته وبنتاه صاروا هوامشَ على متون، أو أنشطة ثانوية اختيارية يؤديها أو يحجم، بحسب كيفه ورغبته، أو بحسب الظروف ومقتضى الحال.

لم تعرف الحب سوى مرة واحدة. لم تعشق إلا ذلك الشمردل، الذي وجدت نفسها أمامه – وجهًا لوجه – عند الفروغ من إجراءات تشييع الجنازة.

أحست بوطأة الزمن تضغطها مؤنبة، صارخة بأن كل سنواتها السابقات كانت في تبات، وتناهى عواء الضمير – خافتًا – إلى مسامعها من أبعد بعيد.. فيما راحت تحاول إعادة بناء شقفات صورة ذلك الشبح – المسخ – الهشيم الأصلية، وقد ثبت ناظريه عليها، آبيًا التجاوب مع دفع شرطي، أو مواء آلات التنبيه الصارخ، أو نداء المارة عليه كيما يتحرك وينهي تسمره وسط الطريق – على ذلك النحو الذي قلت حيلته وعجزت همته – جامدًا، مكروبًا، مشغوفًا، ملهوفًا، زائغ العينين، مشتت الفِكر.

لم يكن هو..

تقوس ظهره، وانحنى رأسه، وفقد اهتمامه بهندامه ونظافته، وظهرت بعض شعيرات الشيب في فوديه وشاربه، وبدا نفسًا غضبى هلهلتها مشاعر متناقضة، تفور بالكراهية، والرغبة في الانتقام، وتكشف عن بقايا عشق قديم سكن أطلال وجدانه، ولم تفلح مرارة الخيانة وقسوتها في طرده، وملاشاة أثره.

أحس بذراع قوي يلكزه، يزغده، صوت يصرخ فيه أن اندفع صوبها، خانقها، قاتلها، باصقًا عليها أمام رجال الدولة السَّنية الذين أحاطوها باحترام، وغمروها بمحبة يداخلها تظاهر صارخ بالإنسانية.

ثم إذا بموجة جنونه تنحسر – بغير نظام – في جزر مهرول، مخلفة على شاطئه عاطفة تترقرق – مازالت – بحب كاميليا، متحدثة بصبابته بين الورى، غير مجيبة رجاءه المتوسل أن ترحم حشاه الذي بلظى هواها انكوى واحترق.

انسكبت بضع نظرات ذاهلة من عينيه الحمراوين تجهل وجهتها، سابحة في تيه موحش بغير حدود، وكأنها تسري في ظلمة من خيال، متشبثة بأي مما تضرب في سكتها، والذي لم يعن له شيئًا في التحليل الأخير.

عمود نور.. لافتة محام.. مدخل «جروبي».. إشارة مرور.. كشك جرائد.. حافة رصيف.. ماسح أحذية.. ثمرة كرنب في يد خادمة.. سيارة أبطأت إلى جوار سيدة متلكئة، فترددت – قليلًا – ثم اندفعت راكبتها إلى جوار سائقها، ملصق للحزب الحاكم عن إجراءاته للحفاظ على نزاهة الانتخابات.

تداخلت في دماغه خيالات وأوهام الفرح القديم، وغناء البنات: «ليه يامه كسر لي النايلو.. ليه يامه وأنا باحايلو»، مع صورة السيدة التي مثلت أمامه، حين أوشكت على مغادرة مسرح عمليات جنازة الدكتور بشير جار النبي.

أما هي فلم يبارح طيف الشمردل وجدانها، على الرغم من أنها تشاغلت ثم انشغلت بفيض المكالمات التي هاتفت – فيها – المحامي، والمحاسب، وبعض كبار موظفي مكتب زوجها وعلى رأسهم وائل راغب، وعلي الششتاوي المديران التنفيذيان لمشروع الجامعة الدولية التي كان يزمع إنشاءها في القاهرة الجديدة، مشاركة مع إحدى الجامعات الأمريكية، وبمنحة من الاتحاد الأوروبي.

حاصرها الشمردل في مخيلتها، مهما حاولت – منتفضة – الهروب إلى شواغل اخترعتها واحدًا تلو الآخر، معانقتها، ملتجئة إليها، لائذة بها، علها تبدد ذلك الحضور الذي تزايدت وطأته باضطراد، أو تصم مسامعها عن صدى وقع أقدام الرجل الضائع الذي استشعرت دنوه واقترابه موشكًا

الإمساك بها، وهزها بعنف، متسائلًا صارخًا – بغضب ومرارة – عن الحقيقة.. فيما بدا وكأنه لحظة تلك الحقيقة التي كان بطلها رجلًا شيَّعَتْهُ لتوها متمنية – من صميم قلبها – أن يموت مرارًا، ويحيا مرارًا؛ ليموت من جديد، مستأمنة عليه خزنة جهنم.. مشددة أن يلقى عذاب السموم.

.....

كاميليا..

في سكة النبوية بباب الخلق، سكنت الجوف المظلم لبيت مبروك الطيب متعهد الحفلات القديم، الذي راح بصره وكف، جراء معاقرته الخمر الرديء، فقبع في غرفة معتمة قذرة من منزل ورثته زوجته سيدة جاد عن أمها، محاطًا ببناته الثلاث.. فريال، وداد، وكاميليا.

اعتادت كاميليا صوت نباح الجوع المخيف، الذي – طالما – عصف بكيانها الصغير، حين لم تجد ما يسد رمقها أو يهدئ الشعور بالاحتياج الذي طال من دون إدراك السبيل إلى تلبيته.

كل شيء في الشق الذي احتواها بسكة النبوية كان كابيًا، أسود، يشعرها بالتوقع، والخوف، والعجز أمام كل ما توقعت أو خافت.

تعلقت لحظة الإضاءة في دنياها بحضن أختها الطيبة، الذي لم يقترن بعطية أو طعام؛ إذ فرض العوز الخانق على وداد أن تصير مثل الأوز.. «حنية بلا بِز!» .

غير أن طاقة نور أخرى انشقت وسط ظلام الجحر الذي لبدت فيه كاميليا مع أسرتها؛ إذ تعود أبوها اصطحابها لتسحبه إلى دار سينما قصر النيل في وسط البلد، حين تشهد حفلًا ساهرًا، فيمر على المطربين والراقصات،

الذين كان وكيلهم في الأيام الخوالي، زمن سكناه بيت الششتاوي في شارع محمد علي، قبلما يخني عليه الدهر، وينسحب إلى خطوط دفاعه الخلفية في بيت زوجته بباب الخلق.

كان العنوان الوحيد لزيارات مبروك الطيب – تلك – هو الشحاذة، متحصلًا بعض المال يدسه أحدهم في يده، أو كف كاميليا الصغير، فتقبض عليه حريصة، أو بقايا طعام يلقيه إليه خادم أو لبيس فيتلمسه محسسًا ثم يزدرده في لوثة نهمة، فيما يدا كاميليا الصغيرتان، طالعتان نازلتان على الأكل بسرعة البرق، ملقيتين في فمها ما يفوق طاقتها أو سعته، متوقية ضياعها وسط الوحوش حين تؤوب إلى البيت، حاملة ما تخلف من الوليمة، آمنة خطر النوم دون مناب، من ذلك الطعام النادر الاستثنائي.

وتعودت كاميليا احتجاز نصيب من الطعام في ورقة منفصلة، أو تجنيب بعض المال الذي غافلت أباها وأبقته لنفسها، كيما تضعه في حجر أختها وداد.. لمحة التحنان الوحيدة في ذلك الجب الذي لمهما مع باقي أفراد الأسرة.

تحول التسول عند مبروك الطيب إلى مهنة يعرف ساحات التكسب فيها مستثمرًا علاقاته القديمة، ومشاعر عرفان مازالت بقاياها حاضرة عند نجوم اكتشفهم الرجل وقدمهم في زمان العز.

وكان اختياره لكاميليا أصغر بناته – بالذات – مقصودًا لزيادة الفاعلية، وإصابة التأثير؛ إذ كانت البنت طريقًا إلى تحنين قلوب نجوم الطرب والرقص، ووسيلة عاطفية نافذة إلى تذكيرهم بنصيب المحروم المعلوم في ذلك الفيض من المال الذي غمرهم وَدَقُّه، فضلًا عن تمكن شعور قوي من نفوس أولئك الفنانين يقول بأنهم تحصلوا ما غرقوا فيه من مال حتى الشواشي بغير حق،

وأنهم نصابون محظوظون يتراسلون مع جمهور فاسد الإحساس والذوق، تقبلهم وهلل لهم لأنه لا يعرف غيرهم، وأن ما جاء من السماء بغير مناسبة، ربما يروح في داهية – كذلك – من دون استئذان.

ولطالما لقن الأب ابنته دورها، مطالبها بعدم الضحك، واكتساء وجهها قسمات حزن فاجع، والسعي معه – كسيرة – يغطي جسمها ثوبها الوحيد ذو المزق المتناثرة عند خياطاته، ويحتوي قدمها الصغيرة شبشب بال ورثته عن أختها وداد حين ضاق عليها، ليمر في دورة استهلاك أسرية جديدة.

التزمت كاميليا تنفيذ تعليمات أبيها – بدقة ونمكية – لكيلا تفقد موقعها في تلك المهمة المفعمة بالفلوس والطعام، والتي كانت من اختصاص أختها الوسطى فريـال قبل عام، ثم عهد مبروك إلى زيادة نجاعة التأثير باستخدامه كاميليا بديلًا عنها.

وكان المطرب ذائع الصيت باسم فهمي أكثر الفنانين عطفًا على مبروك وإشفاقًا على ابنته الصغيرة وعطاء، وتعود تربيت كتفيها، أو المسح على شعرها، وتقبيل جبهتها، وإعطاءها جنيهًا كاملًا في يدها عند كل زيارة، مستعميًا مبروك، ومشيرًا بأصبعه على فمه، حتى يبقى أمر ذلك الجنيه سرًّا مدفونًا في صدر كاميليا، لا تبوح به لأحد – ألبتة – إلا شقيقتها وداد – بطبيعة الحال – التي درجت على ادخار بعض من جنيهات البنت الصغيرة، مصرة على إكمالها التعليم، كيما لا تلقى مصيرها وفريـال حين انقطعتا عن معاودة المدارس بمجرد إجادتهما فك الخط.

وفي إحدى المرات سأل المطرب أباها عن فريـال فيما بدا أنه خاطر عابر – على سبيل الإمعان في رعاية وتجويد تصنيع الشفقة وإنتاجها – مطالبًا

مبروك أن يصحبها معه في المرة القادمة.. وهو ما كان، عندما اتكأ الأب على فريـال – بعد أسبوع – جارًّا كاميليا من يدها، قاصدًا مسرح سينما «ريڤولي» أمام دار القضاء العالي، وقد تصدرته صورة ملونة ضخمة لباسم مطرب الجيل.

وعلى عتبة غرفة الفنان جلس الرجل الضرير القرفصاء يلتهم طعامًا – فرشه أمامه أحد أتباع المطرب الكبير – مصدرًا أصوات لهط، وزغط، وشفط؛ مثل قطط السلم حين تنجح في قلب إحدى صفائح القمامة، فيما دلفت البنتان إلى الغرفة كي تسلما على الأستاذ، وتتحصلا ما فيه القسمة والنصيب.

بربشت كاميليا بعينيها الصغيرتين المستديرتين – دهشة – وهي ترى أختها تعانق الأستاذ باسم، وتقبله منشبة أطراف أصابعها في ظهره – بعنفوان – فيما يداه سارحتان في كل أنحاء جسمها، تحسسان، وتقبضان، وتضغطان.

وبغتة توقف كل شيء، ليخرج باسم جنيهين من جيبه يعطيهما إلى كاميليا، مزيدًا بوضع إناء كريستال مليء – حتى الحافة – بقطع الشيكولاته إلى جوارها، مشيرًا بأصبعه على فمه – كما عودها – وساحبًا فريـال وراء ستار ارتداء الملابس في الغرفة – مطيلًا – بينما البنت تجول ببصرها في محتويات المكان، وتلتهم الحلوى بنهم، أو تنظر لصورتها على سطح المرآة التي علاها مصباح أضاء على نحو باهر.

وحين خرج باسم من مكمنه، وخلفه فريـال مستعدلة شعرها، غمرا كاميليا طبطبة، وتقبيلًا، وحديثًا هامسًا حنونًا عن كونها بنتًا شاطرة وتسمع الكلام، ولا تذيع الأسرار.. ثم بدا الفنان وكأنه تذكر شيئًا، فأخرج جنيهًا

آخر أعطاه لكاميليا التي كانت غير مصدقة قبضها على كل تلك الثروة، على حين دس يده بورقة مالية كبيرة في عمق صدر فريـال، فأطلقت نحوه قبلة مطرقعة في الهواء.

عرفت كاميليا – منذ تلك الليلة – وظيفة تقوم بها في تلك الجولات، غير سحب أبيها الكفيف، وأمعنت التكتم لا تنبس بحرف عما تراه، حتى تضمن عطايا الفنان الذي لم يعد محتاجًا – أمام التزامها الصارم – أن يشير لها بأصبعه على فمه.

عند كاميليا.. كانت فريـال مذهلة، بجرأتها، وتجاربها، وقدرتها على التحدي والمحاجاة، والمضي في سكة الحياة بدماغها على نحو أسلمها إلى علاقة من ذلك النوع مع باسم فهمي.

لم تستوعب كاميليا الصغيرة معنى رابطة فريـال والمطرب على نحو كامل، ولكنها أدركت – على أية حال – وقوعها في نطاق العيب الذي اقتضى شراء ذمتها وسكوتها بكل تلك الجنيهات وقطع الحلوى، ووضع الأصابع فوق الأفواه، في أمر متكرر وزاجر بألا تنبس ببنت شفاه.

ولكن وقائع الليلة المثيرة فتحت عيني البنت على أشياء أخرى، وعلمتها الإنصات – مبهورة مشوقة – إلى وشوشات فريـال لوداد حول بعض مغامراتها لتذوق عسل الحياة وسكرها، والتي لا ينبغي لطعمها أن يظل زعاقًا على ذلك النحو، وإلى الأبد.

وتعودت وداد نصح فريـال، ولكنها عشقت الاستماع إلى حكايا جنونها وشهوتها، وقدرتها اللانهائية الجسورة على فعل ما تريد.. بالضبط ما تريد.

ولطالما حكت فريـال إلى وداد – فيما كاميليا تتنصت – عما تأتيه مع محروس جارهم، ابن الصول كامل نجم شرطة المرافق، وقد تعودت أن تنسل من رقدتها لتنزل إلى شقته حافية، متجنبة الجلبة، حين يكون أبوه نوبتجيًّا، رادمة شعورها بالذل والجوع، تحت أكوام التذاذ مجنون صارخة في محروس أن يعاود من دون شعور شبع أو اكتفاء.

وصارت فريـال السيدة الأولى في بيت الصول كامل حين يغيب، خاصة مع خلوه من الأم – التي ماتت حين وضعت الولد – مهيمنة، طاغية، تأمر محروس، وتنهاه، وتعنفه، وتغويه أن يستغفل أباه سارقًا بعض مال الرشى، التي يتحصلها الصول من أصحاب المحلات والباعة الجائلين – والمستقرة في درج التسريحة – فيما يغط في سباته شاخرًا ناخرًا، بصوت يكاد يهد البيت، موهمة الولد أن الاستيلاء على تلك الفلوس حلال؛ لأنها من مال مسروق، ثم إنها آمنة لأن الصول لا يهتم بحصر حصيلة الرشوة متوقيًا شر العين؛ إذ لا يحسد المال إلا صاحبه.

هلكت فريـال الولد محروس في لقاءات ملتهبة متواصلة، حتى لاحظ أبوه ضعفه، وتهافته، وشحوبه، فغمره بفيض حنان ورعاية، مقدمًا إليه كوب حليب دافئ يوميًّا قبل مغادرته إلى عمله، مودعه أمله العريض في أن يدخل أكاديمية الشرطة، ويصير ضابطًا عليه القدر والقيمة، وهو ما يحتاج إلى صحة كالحديد، حتى يمر – ناجحًا – من اختبارات اللياقة.

.....

لم يك مبروك الطيب وزوجته مكترثين بإلزامات ذات طابع أخلاقي في تنشئتهم البنات بعد أن أطاح الفقر بترف حضور القيم واحترام الأعراف؛

إذ باعت الست سيدة مصاغها – قطعة وراء أخرى – منذ أن كف بصر زوجها، ولم يتبق لها من متاع الدنيا سوى ذلك الكهف الصغير في سكة النبوية الذي يحتوي أسرتها، فضلًا عن بعض المال القليل الذي تتحصله من الخدمة في شقة امرأة عجوز شحيحة في المبتديان، تستأجر قوة عملها – كل أسبوع – لتكنس، وتمسح، وترتب، وتغسل، وتطبخ مقابل سبعة جنيهات، ولم تعرف سيدة – أبدًا – لماذا سبعة بالذات، وليس عشرة أو خمسة.

واستقال مبروك من أبوته، متحللًا من واجبات التربية والحماية، والإنفاق، وربما – كذلك – من وظيفة (ظل رجل) في المنزل، والتي – نظريًّا– تفضل (ظل حائط).

كان جُل همه اقتناص بعض مال يبتاع به شيئًا من خمر مضروب – كل ليلة – ليعبه في جنون ملتاث، فيما يعلو صوته مناديًا مجده الضائع، يوم كان قادرًا على حشد عشرين نمرة في برنامج واحد، ويوم عاش كل النجوم بين أصابعه، من عبد العزيز محمود إلى نعيمة عاكف، ويوم كانت علامة الجودة لأي إعلان شوارع عن حفل فني، ترتبط باسم مبروك.. وكيل الفنانين.

وكثيرًا ما كان – خَمِرًا – يثور على بناته، ويطردهن من البيت مجعرًا – بعلو الصوت – أنه لا يبغاهم معه، ولا يريد الشعور بوجودهن الذي لا يعني – له – إلا الفقر، وأيام تخييط الكعوب شقوقًا، ثم يتخبط في غرفة البيت الضيقة ضاربًا الهواء بحثًا عنهن ليدفع بهن إلى الخارج، فيما الأم تصادق – بسكون واجم – على إحالة بناتها إلى المجهول، متخلصة – كذلك – من عبء تلك الأمومة التي وجعت قلبها، وهدت حيلها، راغبة – من صميم فؤادها – الرحيل عن الدنيا بأسرها، لتفارق حياتها القفر الموحشة، المجبورة على الانحشار في وقائعها وساعاتها التي يعلوها الجدب والقشف.

وفي مثل هاتيك الليالي الكارثية تعودت البنات النوم على درج البيت الرطب القذر، إلا أن تكون نوبتجية الصول كامل، فتنسل فريـال إلى شقة محروس، أو ميمي – كما تعودت مناداته – لتنعم بالنوم في فراش أبيه، وتغادر – باكرة – قبل أن يؤوب الصول عقب انصرام ساعات خدمته.

وحين التحق محروس بالأكاديمية البحرية في الإسكندرية، بعدما أخفق في كشوف أكاديمية الشرطة، صار بعيدًا عن متناول يد فريـال، إلا حين إجازة تباعد تقاطرها كلما أوغل في الدرس والتحصيل، فعمدت إلى ملء الفراغ بالإكثار من لقاءاتها باسم فهمي، في المسارح – بصحبة أبيها وكاميليا– أو في شقته بشارع البستان.

رأت ذلك المطرب طريقًا يمكن أن ينفتح أمامها إلى أفق جديد، إلى حياة بحق وحقيق، تكتسي ألوانًا وضياءً، بدلًا من تلك التي يفوح منها العطن وتكتنفها العتمة في شق سكة النبوية، الذي كلما رجعت إليه بعد لقيا عشيقها، أحست نكس هلالها بعد التمام.

شحذت أسلحتها – كلها – قابضة على باسم، معتنية بنفسها على نحو ما تسمح جنيهاتها التي تتحصل منه، راشقة مشبكًا بلاستيكيًّا ملونًا عند شعر مفرقها، أو محيطة معصميها بعيدان الرفيف، أو حريصة على إبراز صدرها النافر الشامخ من فتحة ثوبها أكيدة بأن عين البطر هي ستر ما أوليت من حسن.

ثم أرادت أن تطور غزوها، فسمحت لنفسها أن تحمل منه سفاحًا، ولما أخبرته، تفجر بركان غضبه مزلزلًا، وأسقط في يده حين عرف أن الحمل تجاوز شهريه الأولين، فعزم على تزويجها أو إلصاقها برجل مسخرة لا يفيق

من الحشيش، هو أحد أفراد زمرة رفاقه، وتعود أن يسلم قياده إلى المطرب في كل كبيرة، أو صغيرة، مندفعًا إلى المصادقة على كل ما يزقه إليه، أو يوسوس له به، مردداً: «صح يانجم.. وحياة النبي انت خسارة فينا».. حمدي سيراميك أحد أصحاب توكيلات البلاط الكبرى في وسط البلد، الذي يقع منفذ البيع الرئيسي لتجارته خلف دار الكتب على مرمى حجر من بيت فريال في سكة النبوية، وكان جزءًا من شلة تعودت السهر – كل ليلة – في ملهى فندق أطلس بشارع الجمهورية، وضمت بين تشكيلها هشام البابلي صاحب متاجر الملابس المستوردة، وباسم فهمي مطرب الجيل، والحاج سيد فتحي ملك الفيات في حي معروف، والذي وقع بالحضور في دفاتر مجالس الأنس – جميعًا – ولكنه لم يتورط – أبدًا – في سقطة أو معصية، ومعهم ثري خليجي هو عبد الرحمن العنبري السفير والديبلوماسي السابق.

وتزوجت فريال من حمدي سيراميك في عجالة دفع إليها – بحماس– باسم فهمي مهندس العملية بأسرها، ووجدت المرأة الجميلة الشهوانية نفسها – وجهًا لوجه – أمام شبح رجل، غائب في أبعد بعيد من خيالات وأوهام وتخاريف، متبلد يهيم في خدر ناعس، محلق في رؤى ينبسط لها وينشكح ويخالها الواقع والحقيقة فيحتضنها في رضاء متبسم، من دون إدراك بأنه يعانق سرابًا أو بعض أضغاث أحلام.

وسقط حمل فريال في شهره السادس، فيما أبقى باسم على علاقته بها.. زوجًا موازيًا لحمدي سيراميك، ولكن من دون مواثيق أو عقود، كونه لم يقدر على مفارقتها، أو التخلي عن لذة جنونها الغامر، ورغبتها المتأججة المتواصلة.

كانت فريـال شحيحة على أمها وأبيها، فلم ترسل إليهم إلا النذر اليسير كل دهر، مدعية أن أحوالها وحمدي ليست على ما يرام، وأن الناس تتصور شيخًا تحت القبة، فيما تلك القبة لا تعلو إلَّا فراغًا تصفر فيه الريح، مرددة ما خالته دليل ثبوت على صدقية زعمها: «قال حسدوا الغجر على ضل الشجر».

طلبت إلى باسم إعانة وداد على تعليم كاميليا، فأوصى صاحبه هشام البابلي بتوظيفها في محلاته، والذي ما إن استقبلها حتى اقتنع بمؤهلاتها الكاملة للعمل، وربما لما يجاوزه.

وتنوعت مسارح العمليات العاطفية التي اندمج فيها باسم وفريـال، بين شقته في شارع البستان، أو بيت الحاج حمدي سيراميك المجاور في ميدان باب اللوق بحسب مدى قدرة المرأة وتمكنها من الخروج بيسر، كون زوجها دائم الاتصال بهاتف المنزل، مخرفًا مثرثرًا معها عن أشواقه التي استبدت به، مبعثرًا بعض تعبيرات ركيكة وبلدية، كما يُنثر فوق العروس النقوط، عن الانكواء بنار حبها، أو الذوبان في أطراف أصابع قدميها.

وفي إحدى زيارات باسم فهمي لفريـال، وفيما العشيقان في ذروة المضاجعة، والمرأة منهمكة في توقيع وثائق تؤكد أن ليس في الناس مثلها عاشقة، عاد الحاج حمدي سيراميك في مفاجأة أرادها بهيجة يسعد بها حبيبة قلبه، فخر صعقًا أمام الصدمة التي أطاحت عقله، وألقت به إلى بئر جنون قاتم الأعماق.

ومن حينها تعود المارة، والباعة، وحراس البنايات، والسائقون، وعساكر المرور في وسط المدينة، مشاهدة الرجل الذي كان أكبر تجار البلاط في البلد،

مطلقًا لحيته، حافيًا، متهدل الملامح، ذاهل العينين، تتدلى من فمه لفافة تبغ في هزيعها الأخير، صارخًا بعنف غاضب مغرقًا في إحساس جدية وخطورة: «ماعدش فيها كسوف.. يامه اعملي معروف.. يامه افتحي له الباب.. واللا أناديله»، ثم على نحو راقص، رعش، بهج، متهتك، ومباغت: «أناديله يامه.. أمه»!!

وطلبت فريـال الطلاق، وتحصلته بحكم محكمة بعد إثباتها حالة الزوج العقلية، وحرصت في مرحلة انتظار الحكم على إسباغ ورسم أحاسيس مكلومة، بريئة، مصدومة، على سحنتها، داعية أصدقاء زوجها إلى عونها ومساندتها في المحنة المخيفة التي سقطت في قبضتها، منهمرة دموعها – بمقدرة لافتة – كلما احتاجت إلى تعظيم التأثير ومضاعفته.

وقف أصدقاء الزوج المخبول مع فريـال وقفة رجال، وأثبت الحاج سيد فتحي، وهشام البابلي زوج أختها وداد، وعبد الرحمن العنبري، وبالطبع باسم فهمي، أن العشرة والعيش والملح أثمروا فيهم، وكان أكثرهم حماسًا لمساعدتها الحاج سيد فتحي؛ إذ – بشهامة أولاد البلد – أراد تخليصها والأخذ بيدها لتخرج من تلك المحنة التي تعد اختبارًا – لا شك – لإيمان المؤمنين.

وبعد شهور قليلة كان الحاج سيد نفسه طرفًا في مساندة فرع آخر من فروع عائلة مبروك الطيب حين توسط لطلاق وداد وهشام، في أعقاب التحولات التي اعترت الزوج، ودفعته إلى مسار متزمت درويش، ينكر الحياة، ويتعسف إزاء مفرداتها.

وتوغل الحاج فتحي في تلك المساندة الأخيرة حتى تزوج ودادًا، وانتقل بها إلى شارع محمد علي، فيما قامت بتأجير شقة عمارات الخديوية – التي قطنتها مع هشام – إلى عبد الرحمن العنبري.

ومن الوهلة الأولى، قررت فريـال – التي بات وضعها مشروعًا وشرعيًّا وحرًّا تكسوه الفضيلة ويظلله التظاهر بالصبر على بلاء المولى – أن تلقي بشباكها على ذلك الثري السعودي، فتزوجته في ظرف أسابيع ثلاثة، وأسكنها بيتًا في وسط المدينة يشغل الطابقين الأخيرين من بناية ضخمة، مفتوحًا على سطح كبير، ومطلًّا على ميدان التحرير، ومشهد زحام البشر، والسيارات.. خلوًا عند القمة من تلوث وضجيج السفح.

وتغيرت فريـال بسرعة.

صارت زبونة عند أكبر مصففي الشعر، وتعودت السفر إلى أوروبا مع زوجها للتبضع والفسحة، وقررت أن تؤلف لنفسها تاريخًا، فوضعت عددًا من صور الملك فاروق في إطارات مذهبة على جدران غرفة الاستقبال الفسيحة بمنزلها، إحداها لجلالته طفلًا، والأخرى في زفافه إلى فريدة، والثالثة بالملابس العسكرية الرسمية، وقامت المرأة بتصنيع بعض أساطير، عن أصولها المرتبطة بعائلة من نبلاء لوكسمبورج، وجدها الذي كان خبير تحف تستعين به العائلة المالكة، وشكلت تلك القسمات الاجتماعية والتاريخية المفبركة المخترعة، مع روح فريـال البلدية، وطباعها ومزاجها السوقيين الأصليين، صورة هي مزيج بين سمات الهوانم، وشيم الغانيات.

وعشقت الخمر، مغرقة نفسها في ذلك الشعور الرائع الذي استولده في نفسها، حين أطلق المزيد من جنونها، وأشعرها بقوةٍ جَموحةٍ مُقتحمةٍ، نافضًا عنها سنين الفقر والجوع والقهر، موسوسًا إليها بأن كل شيء بعده عدم، وواعظًا بأن الذي كثيره مؤلم قليله حرام، وما قليله مبهج كثيره حلال.

بغضت كل ما يذكرها بأبويها، وأيام القشف، وعفن سكة النبوية، وباب الخلق كله، قاطعة صلتها بكل ما يمكن أن يسترجع أطيافهم، إلا حين تثمل منادية أبيها هاتفة: «تعيش الخمرة النضيفة يامبروك»، ثم تطلق ضحكة فاجرة أقرب إلى صراخ معذب طال اعتقاله في زنزانة روح تعيسة مهلهلة.

وعلى الرغم من أن فريـال سعت إلى الإيقاع بعبد الرحمن العنبري واصطياده، وغرقت في العز حتى شواشيها، فإنها – في عمق وجدانها – شعرت بتشابه وضعها، وبنات الأرياف اللاتي يسقن إلى رجل خليجي، فيشتري منهن ما اصطلح على تسميته: الزوجة المصرية.

غاضت نفسها وفاضت بحسد مرير لشقيقتها وداد، وزيجتها من رجل عليه القدر والقيمة، ملء العين، يعيش من أجلها ويغار عليها، ويحب بيته ويسكن إليه وإليها.

أما ذلك العبد الرحمن فهو دفتر شيكات.. خزانة فلوس فحسب، قلق، نطاط، لا يطيق المكوث في مكان واحد من القاهرة إلى الدوحة، إلى أوروبا، إلى الشرق الأقصى، إلى أمريكا، وحديثه سلسال ذكريات سخيفة عن عمله الديبلوماسي في عواصم الدنيا، وحواديت عن وقائع لقاءات مع أشخاص يحكي عنهم وكأنهم مشهورون، فيما لم تسمع بأيهم، أو تعرف كنه شغلته بالضبط، والوحيد الذي تذكرت اسمه – لا تعرف لماذا – كان رجلًا يدعى كيسنجر.

ما وُجد اشتياق، كاشتياق فريـال إلى تلبية نداء احتياجها الحسي الصارخ والمتواصل، وهو ما اصطدم بفتور عبد الرحمن، أو حركته القلقة، سفرًا، وخروجًا، وسهرًا، واستلفتها ذلك الحضور غير المفهوم والمبالغ فيه لسائقه

الحبشي، الذي كان يجلس معهما على مائدة الطعام، ويداوم التسارَّ مع رب البيت على نحو غامض، ويرافقهما في كل مكان، أو سفرة، أو سهرة، وأدهشها أن العنبري خصص له غرفة من البيت الذي اشتراه لزوجته في «بيزووتر» بلندن، والمطل على حديقة «الهايد بارك» عبر شرفة زجاجية باهرة الاتساع.

وكلما أبدت فريـال استعجابًا، أو استفهامًا حول وضع ذلك السائق تلقت إجابة مبهمة، ومقتضبة من العنبري خاتمتها إشارة إلى أنه عِشرة قديمة، ويخدمه منذ كان يقيم في بيت الأسرة بالدوحة.

عاشت ابنة مبروك الطيب في تمزق بين رغباتها الملتهبة، وإعراض زوجها الثلجي، وما بين حضور عفاريت فقرها القديم في مخيلتها، وحلم عزها الحالي الذي لا تريد منه إفاقة، وبين تاريخ اخترعته لنفسها وعاشت في زيف أكذوبته، وحقيقة تطل من جوف ضميرها مبكتة، مؤنبة واصمتها بالكذب، وما بين ذكرى علاقة عارمة مع باسم فهمي، وأخبار ارتباطه الجديد مع مطربة صاعدة أخذها لتقويم أسنانها المعوجة عند طبيبه الخاص، واشترى لها سيارة دفع رباعي، ويلاعبها التنس – يوميًّا – في نادي الجزيرة، وترافقه إلى جلسات فندق أطلس مع الشلة، ناظرة إلى فريـال بمكايدة، في حين تجنب المطرب ترامق عينيه ومقلتي عشيقته القديمة.

لا بل وتشظت نفس فريـال تحت وطأة تجاذبات التناقض بين حياة زائفة جوفاء تعيشها في منزل التحرير، أو شقة لندن، أو بيت مارينا الضخم، وبين عيشة أختها وداد في ظل زوجها الأسطى المحترم الرائع.

وفي إحدى سكراتها الكبرى، وانخراطها في أفكار أطاحت الرضاء بالنصيب، ورفضت القناعة بالقِسم، وطموحها – في جوع شبق – إلى ما

يحوز الآخرون، هبطت درج بيتها مترنحة، منطلقة بسيارتها – في جنون – على نحو أشبه بما يجري في مدن الملاهي، حتى بلغت بيت وداد في شارع محمد علي، وصعقت الشقيقة الطيبة حين اندفعت فريـال إلى داخل الشقة صارخة، آمرتها بالخروج من المنزل، ثم مقتحمة غرفة النوم نازعة ملابسها في عنف، ومستلقية – عارية – متمرغة على الفراش زاعقة بأنها تريد ذلك الأسطى فتحي، وأنها سئمت عبد الرحمن، وفلوسه، وبيوته، وسفراته، وخمره، وسائقه.

واستماتت وداد في تهدئة أختها، وأخذتها إلى الحمام لتفتح صنبور الماء فوق رأسها، ثم تصنع لها فنجانًا من القهوة على عجل، دافعتها إلى ارتداء ملابسها، والخروج بسرعة قبل عودة الأسطى، مدشنًا ليلة سوداء كالقار على دماغها، ليس فيها أقل من علقة ساخنة بالخرطوم المطاطي، وخرجت الشقيقة السكيرة – بعد لأي – وتنفست الزوجة الصعداء.

وأغرقت فريـال نفسها في حفلات صاخبة تكتظ بنجوم المجتمع ورموزه، وصار بيت ميدان التحرير ملقفًا يمتلئ كل مساء حتى الحافة، بأناس من مختلف مشارب الحياة، وكل الجنسيات، والملل، والوظائف، وشاغلي مواقع التأثير، وحاملي الحقائب الوزارية، وعملاء التخابر، ولصوص المال العام، ومشاهير الداعرات، ووعاظ الفضائيات، وزعماء الأحزاب، وصحفيي الحكومة، وكتبة المعارضة.

وعاشت فريـال وسط الأجواء الجديدة تبحث عن رجل من أجل ليلة واحدة؛ إذ لم تعد تأمن الانغماس في علاقة متواصلة ممتدة، في ظل إحساس طاغ مهيمن بأن السائق الحبشي لا يرفع عينه من عليها مراقبًا، ومتلصصًا.

وصاغت المرأة الفاتنة رغباتها – في ظل تلك الالتباسات – معشوقة على الغدر، لا تحفظ عهدًا، ولا تتم وصلًا، تنظر لأي رجل تبغاه وتشتهيه على أنه كحقنة من بلاستيك، يستعمل مرة، ويلقى – بعد ذلك – في صندوق القمامة، والمهم هو إمعان بناء السواتر، وإتقان المداراة.

واندمجت فريـال في دور سليلة الأسرة الأوروبية النبيلة ذات العلاقة الوثيقة بفاروق الأول، ملقية مبروك الطيب، وسيدة جاد وراء ظهرها مخلفة باب الخلق وطعم الفقر، مقسمة ألا تعاود الالتفات أو النظر.

وتلكأت سنوات زيجتها بالعنبري سائرة على ذات الوتيرة، إلى أن جرى ما حار الأقارب، والمعارف، والخدام في استشفافه، أو تفسيره، وأفضى إلى طلاقها من عبد الرحمن.

وتناثرت أقوال لاذعة في المجالس ذات الصلة بالطليقين، عن اكتشاف فريـال أمر الرابطة التي شدت ذلك السائق الحبشي إلى سيده، والتجاء الرجل الخليجي عند انفصاله عن زوجته إلى دفع مبلغ هائل من المال، والتنازل عن شققه وعقاراته – في القاهرة ومارينا ولندن – إليها، متوقيًا الهتيكة والفضائح، ومتدرعًا بشراء سترها عليه، ثم مختفيًا بعد ذلك كفص من الملح ذاب.

ودوت أبواق النميمة – بعد شهور – تعلن أن فريـال تحجبت، وغادرت مصر – بغتة – إلى لندن، مؤجرة بيت التحرير إلى بنك أجنبي، ومخصصة بيت مارينا للتصوير السينمائي مقابل أجر، وتناهى إلى مسامع معارفها – بعد ذلك – أنها رافقت رجلًا چامايكيًّا في لندن كان بطلًا للمصارعة، ولم يعرف أحد شيئًا عن مصير حجابها، أو طبيعة الأساس العقائدي الذي تمت تلك الرفقة بناء عليه.

.....

أما كاميليا، فاستمرت تسعى في سكة تعليمها – بإصرار وتعثر – حتى تحصلت شهادة المعهد العالي للتمريض، وتوسط الأسطى فتحي لدى أحد زبائنه من الأطباء لتعيينها في قصر العيني، رادًّا الصنيع – في التو – بإصلاح سيارة الزبون مجانًا.

وعاشت البنت الصغيرة بجسدها في شق سكة النبوية، وبروحها في بيت الششتاوي حيث شقيقتها وداد، متأملة – باستغراب – ذلك الشعور الذي طفق يلاعبها، ويلح عليها مشيرًا بإعجاب – يتطور كل يوم – إلى الشاب الفلاح العبقري، صاحب وائل راغب، والولدين الشقيين المجرمين الحائمين حول نادية وشادية بنتي أختها.

.....

مطرق الرأس – مازال – كان الشمردل يحاول استجماع شتات نفسه، مجتهدًا في إطاحة الرعب والتوقع اللذين استكانا بين ضلوعه، مجبورًا على الطفو فوق بحر تفكير يبدو من فرط عمقه بلا قاع، متلاطم الموج، عفي التقلبات، فكأن الشمردل نورس يضرب بجناحيه هواء ثقيلًا بلله الرذاذ، ويثبت نفسه في نقطة بعينها، ثم يجاهد مواصلًا التحليق، لا يريد لجدر الموج المتتابعة أن تضربه، أو تحتويه مبتلعة ومغرقة، ساحبته إلى حيث لا يبغي، أو إلى حيث تنفصم إرادته عن فعله، ومن ثم يتجاوران صريعين.

رحل كل المشاركين في موكب جنازة الدكتور بشير جار النبي، ومارس البلد، ومسئولوه، وسلطته، ومعارضته، وناسه كل طقوس الغش التي أجادوا الانخراط فيها منصبين أنفسهم كهنة في معبد إهدار المعايير، والاحتفاء بالنصابين واللصوص.

ووجد ابن «مِعجِبة» نفسه وحيدًا في ميدان طلعت حرب، لا يعرف إلى أين تقوده خطاه القادمة.

عاش سنوات محنيَّ الظهر والهامة، يلغي نفسه، ويخفي اسمه، ويشطب إبداعه، ويمعن صناعة قدح من عظم جمجمته مقدمًا فيه عصير عقله، كيما يكبل الدكتور بشير منه بصوت مسموع، ثم يتجشأ على نحو نكر، فيحييه الجميع مستحسنين.

اليوم التقى ذات العينين الجميلتين الواسعتين الواعدتين، صاحبة عظيم المُلك في المقل، والتي حين بدت له – منذ سنوات – أتاهت عقله، وشعر أن الدنيا – لولا حياء مصطنع – تبغي أن ترقص به، وأن أشجار الشوارع مدت أغصانها إليه محيية مباركة، وأن شذا البنت أقام به مستوطنًا فما عاد يشم سواه.

حين تبسمت كاميليا – للمرة الأولى في لقائهما بمنزل الست فردوس– لف الشمردل صدى صوت أمه «بدرناس»: «ضحكت لك سنبلة يا ولدي».. طازجًا.. مجلجلًا.. غامرًا.. موحيًا.. محرضًا.. مفعما بطعم توت البتانون الأسود المعسل.

.....

لم يك الولد – خفرًا وخجلًا – معتادًا الحديث إلى ضيوف آل بيت السيوفي، في دخلته أو خروجه، والتزم غض البصر إذا حدثته الست فردوس – سائلته عن شيء ينقصه، أو أمر يحتاجه، ومؤكدة مكررة أنها كوالدته وينبغي ألا يخجل منها – واكتفى الشمردل بالهمس إليها شاكرًا وداعيًا، حتى أن ملامح تلك المرأة الطيبة لم ترتسم – بدقة – في مخيلته؛ إذ رآها بقلبه صورة رمزية

ومعنوية، مشيحًا عن تأثيرات رؤى العين التي لطالما غرَّت أصحابها، وهي لم تحدث – على أية حال – مع تجنبه النظر.

ولكن ابن «مِعجِبة» في تلك الليلة – بالذات – حين سلم على ضيفة البيت الشابة مستقبلًا عبارة ترحيبها الهامسة: «أهلًا ياأستاذ شمردل.. وائل – دائمًا – في سيرتك بالخير»، نظر، وأمعن، ورنا، وهام، وكحل عينيه بطلعة ذلك البدر المنور.

ولم ينم ابن «مِعجِبة»، وأمضى سواد الليل متقلبًا في فراش غرفته بالمدينة الجامعية، وتمدد طيف البنت في نفس الشمردل حتى الحافة، معلنًا كامل احتلال وجدانه، ومصادرة قلبه الرهيف المفعم بخيالات الريف العبقرية الموغلة في التفرد والإدهاش.

«ضحكت لك سنبلة يا ولدي».

أخيرًا.. جاوبت السماء ضراعة بدرناس، وتبتلها، ودعاءها الصافي الرقراق، الصاعد من صدرها آهة رجاء شديدة الإخلاص والصدق، فأصبحت كاميليا حلم الولد في تيقظه ومنامه واصطخب قلبه مرفرفًا في صدره كلما دق باب منزل راغب، متوقعًا لقاءها وارتشاف بعض رحيق عسل طلتها الحلو، الذي بدا استثنائيًّا في دنيا الشمردل المُرة كشجر الصاب، والتي لا تعرف سوى المذاكرة، والتفوق، ووصية الأهل بالعبور إلى البتانون أو ما يجاوزها، والاستقامة كفرع الرمان العصي على الكسر.

وأكرمته السماء بما لم يتوقع حين لقي كاميليا على باب البناية قبل بلوغهما الدرج الصاعد إلى شقة راغب، ومد يده بالسلام مصافحًا، ومحتويًا كفها

الصغير، وناظرًا – بإسهاب واستفاضة إلى وجهها الجميل، وعينيها الواسعتين؛ مثل مقلتي غزال فرح متوثب، يمرح في براري الحب.

وتمتم الولد بما لم يدرك، أو تتبين فتاته وتفهم، ولكنهما أحسا – معًا – بأن حوارهما وصمتهما كانا فيضًا من بلاغة فصيحة ورصينة، وأدرك الشمردل أن فرصة ذلك اللقاء إن أفلتت من دون خطوة تمتد بعاطفته إلى قدام، فلن يجاوز – بعد ذلك – لقاءات الصدف في غرقة استقبال الست فردوس أو صالة بيتها مرورًا إلى راغب وأفراد شلة المذاكرة، وهمس – متلعثمًا – بما لم يتعد كلمات أربع: «ممكن أشوفك بره يا كاميليا».

واستجابت ابنة مبروك من فورها، وكأنها توقعت الدعوة وانتظرتها، أكيدة من مشاعرها الأولية، البكر والفطرية، رافضة الخوادع من وسوسات أو هواجس.

وراح الشابان يلتقيان – في مواعيد مضروبة عند نهايات ورديات عمل كاميليا – أمام بوابة قصر العيني الجديد، فيتمشيان على جسر الملك الصالح، ثم يجلسان على إحدى دكك الشرفة الشعبية المطلة على البحر الصغير، منضمين إلى طوابير العشاق الصغار من الأولاد والبنات، مديري الأكتاف والظهور للمدينة، والسيارات، والضجيج، وهموم الحياة، وقرف العيشة، وغموض المستقبل، مطلين على الماء الساري، هامسين بالحب، موشوشين بآمال لا يسندها منطق، طفشانين بعدما خنقهم حصار عاطفي، واجتماعي، وثقافي غير أخلاقي، يدعي الأخلاقية، ويحتكر سلطتها، وأدواتها، وروادعها أجمعين.

وتعودا ارتشاف السائل الحريف من أكواب حمص الشام، وقضقضة كيزان الأذرة المشوية، أو حبات الترمس بالشطة وعصير الليمون.

عف الفتى فكان عشقه مَكْرُمة، ولم يثن فرعه، أو يسمح بما يسلبه استقامته، وأخفى أمر عاطفته الجارفة عن كل رفاقه، وأفراد شلته، حريصًا على سمعة البنت – بالتزام ريفي محافظ – إلا سمير التميمي ووائل السيوفي اللذين كانا محل ائتناسه وثقته، فأودعهما سره، مفضفضًا وآمنًا.

وهامت كاميليا بحبيبها المزهو بنفسه، وأصاخت السمع – شغوفة – إلى حكيه البديع الآسر عن البتانون، وسمائها الرائعة المرصعة بالنجوم تتلألأ، وغيطانها الخضراء المفعمة بالنوار يتفتح، وتلك الرائحة الرائعة تفوح في ربوعها، خليطًا من طزاجة الخضرة، وعبير الخبيز، فيما خيالات السير تخيم على وجدانات الرجال، وإيحاءات الأغاني تسكن أضلع النسوة وحشايا البنات.

لطالما كلمته عن مستقبل باهر يفتح له ذراعيه – كما أخبرها راغب – وعاهدته أن تكون له حبيبة قلب، ورفيقة درب.

كان خلاصها الذي لم ترغبه، أو تختبر صدقيته وأرجحيته في مواجهة خيار نظير بديل، ولم تتصور وسيلة لصعودها غير تفوقه ونجاحه، ولم تتخيل إلَّا إيَّاه يدًا تنتشلها من وحل سكة النبوية، والأب الضائع، والأم الذاهلة، والأخت التي سارت وراء نداء جسدها، ورغبتها العارمة في الغرق وسط بحر رمال مترامي الأطراف، سالكة طريقًا امتد من محروس إلى باسم إلى العنبري، وأسلمها إلى تعاسة، وغياب في سكرة وراء أخرى، يومًا بعد ليلة.

حين أمسك الشمردل بيد كاميليا – للمرة الأولى – استشعرها فردًا من الحمام الدافئ، استسلم له – في دعة واستكانة – فكأنما كان كف الولد إحدى طيقان غية دلفت منها البنت إلى الأمان والحماية.

أشركته حمولة نفسها المعانية، وحدثته عن مسير حياتها الوعر والشائك، والتجائها الدائم إلى بيت وداد وزوجها، وأخبرته عن علاقة بشير وعلي بنادية وشادية، فوجدته عالمًا بها ومحيطًا، وسألته المشورة والرأي، فأنبأها مخاوفه، بشعور مسئولية عن كل ما يرتبط وكاميليا، وبرجولة تعي معنى الإحاطة.

.....

بمقدار ما كان بشير يكره الشمردل ويحتقره، فإن الفتى الريفي – حين استفتى قلبه – لم يكن مرتاحًا – هو الآخر – إليه، ولا إلى تزلفه حين مصلحة، أو تعاليه حين يتحصلها.

ولم يحتج الشمردل إلى كثير فراسة ليستشعر كراهة بشير له، وذلك الاشمئزاز الذي استبطنه، مصافحه وكأن في يده جذامًا، محدثه وكأنه مسخ مشوه نتاج المزج بين العبقرية العلمية الساطعة، والبلاهة الريفية الساذجة، هامسًا – في جوف سريرته – باستعجابه أن تخص السماء ذلك البأف الفلاح بكل هاتيك المواهب، فيما تحجبها – بخيلة – عن وطنيٍّ رائع، ابن بطل يحمي البلد والشعب من الإرهاب والمؤامرات، والعملاء، وبلغت سخرية بشير من الشمردل إحدى ذراها العالية حين أطلق عليه: «بلدينا».

احتقن بشير بشعور غيرة وموجدة ظل يتمدد في نفسه – متشابكًا ومتقاطعًا – حتى بات الشمردل عذاب دنياه، وموضع إفرازه المتواصل لسموم الازدراء، والرغبة في الإيذاء والسخرية.

وازداد ابن الضابط حنقًا على ابن «مِعجِبة» حين بدأت أخبار رابطة الشمردل وكاميليا في التسرب والانتشار، بعدما أخبرت نادية بشيرًا وسط ثرثراتها البلهاء بأمر خالتها الصغيرة الفاتنة.

واستحالت علاقة الفتى الريفي بكل من سمير التميمي، وكاميليا، ميدانًا خصه بشير برماية صفراوية حرة، كونه غير قادر على النفاذ إلى سمير بحكم أخلاقيته المتطهرة التي تدين أمثال بشير، وترى في سلوكهم وأقوالهم ما ينبغي اجتنابه، أما كاميليا فأثارت دهشته حين أعجبها ذلك الفلاح القحف مشيدين صرح علاقة جادة، فيها لون من وصم نزواته – ولو بنحو غير مباشر – فكأنما الشمردل وكاميليا الحياة، وبشير فضيحتها.

ووجد بشير نفسه غير قادر على إيقاف حديثه عن الشمردل وسمير، وكاميليا، حتى في المنزل محاورًا أباه، متصورًا أن تحقير ثلاثتهم وطعنهم اغتيالًا، سيدعم حضوره ووزنه – أمام الأب – جهرًا.

واستلفت ذلك الحديث المتكرر، نظر العقيد محمود جار النبي، وبخاصة تلك الإشارات المتنوعة إلى دينية سمير التميمي الزاعقة، وغضبته الدائمة على كل شيء، وإحساسه الدفين بغياب العدالة، وانتظاره الفرج الذي سيرد غيبتها، ويستبدل الحق والنور، بالفسق والجور، لا بل واستوقفه اسم التميمي نفسه دافعة إلى تفكير وتأمل.

.....

سمير التميمي.

آخر عنقود التمرد في سلسال عائلة ثائرة غاضبة.

نظرته الواجمة الصخرية، وعينه الفياضة بالأسى، وتطلعه الدائم إلى بعيد، وكأنه يستشرف قادمًا يتبدى عند الأفق، أشاروا – جميعًا – إلى بعض من تجربة حياة ذلك الولد المـأزوم، وشعوره العميق بالظلم حين بات ثقافة، وبالحضور الدائم لسلطة باطشة غاشمة قادرة على إطاحة الأحلام،

ومبعثرة كبرياء البسطاء بمبرر أو من غير مناسبات، إذا صدرت من أحدهم آهة توجع تنادي الخلاص، أو سؤال يترجى فهمًا ومعرفة لن يتحصلها صاحبه أبدًا، أو دمعة إحساس بالقهر لن يسمح أحد بكفكفتها أو تربيت الأكتاف وطبطبة الظهور، أو لمجرد التوقي، والاحتراز، والاحتياط الذي هو – بالقطع – واجب.

لم يعرف سمير في عائلته رجلًا أو شابًّا – على امتداد سنوات عمره الصغير – إلا سيق للاعتقال السياسي تحت عناوين منوعة مدموغًا بالشيوعية، أو الناصرية، أو الإسلاموية، وملحقًا – بالحق أو بالزور – تنظيمًا من تلك التي نشطت في المنصورة وجوارها، كونها مدينة تحفل بالمثقفين، الذين – بطبيعتهم – يثرثرون كثيرًا، ويتساءلون طويلًا، ويعترضون ويتمردون إذا صادفوا حبلًا متروكًا على الغارب.

عرف سمير – طفلًا – معنى الترويع حين اعتُقل أبوه مرة في تنظيم ناصري، وأخرى في تنظيم إسلامي، وأُبقي في المرة الأخيرة حبيسًا لبضع سنين، ثم خرج كسيرًا حزينًا ليقضي بعدها بشهور، واعتاد الولد مرافقة أمه حين تُهرع إلى واحدة من خالاته أو عماته، أو إحدى زوجات أقاربه لمؤازرتها، ومحاولة سنادة بيتها من الانهيار بعدما غُيب زوجها، أو ابنها، أو أخوها في جوف مجهول، محاولات البحث في المستشفيات، والأقسام، ومنازل الأصحاب والأقارب، ومقاهي الشلة والرفاق، فإذا أخفقن، أدركن أنه – هناك – في قبو مظلم، أو ربما تم ترحيله إلى القاهرة ليبدأ السير على الأشواك في طريق آلام علاماته الدالة.. تحقيقات مضنية، واعترافات مطلوبة، وقسوة مفزعة، ثم إفراج أو حبس على ذمة قضية تتواصل حلقاتها حتى تفضي بصاحبها إلى داهية، أو إلى ستين داهية بحسب حجم التهمة الملصقة به، أو الجرم المنسوب إليه.

انشغل سمير بمحاولة فك تشفير علامات الاستفهام التي أحاطت حياته على ذلك النحو الأليم، وحرمت عائلته الاستقرار والطمأنينة، كما بعثرت مستقبل حفنة من الرجال ذوي العقول الكبيرة، والأحلام النبيلة، الذين جأروا بالشكوى وبالسؤال في سبيل ما رآه بعضهم قضية، وما اعتبره البعض الآخر مجرد عرض حال، أو رغبة زقزقت له بالاختلاف.

وأمسك الولد بخيط في سيرة عائلته السياسية الزاخرة، وظل يسير من خلفه – متقصيًا ومفكرًا – وكلما أوغل أكمل بعضًا من كلمات الجملة الناقصة؛ إذ كان المشترك بين كل المعتقلين من عائلته – سواء انضموا إلى تنظيمات أو اقتصروا على الاحتجاج الفردي المستقل أو المنزلي العائلي – هو إحساسهم بأن دنيا السادة لم تعد تتسع لهم، وأن وحوشًا غلاظ القلوب مجرمين يدفعونهم – مع ملايين الفقراء – مطرودين من قلب الحياة، منفيين إلى حوافها، ماشين على رمال ملتهبة كحبيبات الجمر، جائعين باحثين عن البلح الرامخ المر في نخلات جدباء كسيرات موشكة على السقوط، متجرعين ماء آبار العادم المالحة، التي كلما شرب المرء منها أحس مزيدًا من العطش.

جميعهم رفعوا عقائرهم بالسؤال حين عذبهم غياب العدالة، وروعهم رسوخ الظلم، وتلبسهم قنوط ويأس عظيمان وهم ينتظرون زمنًا يعلمون في أعماق ضمائرهم أنه لن يجيء.

ابتعد سمير عن مخالطة زملائه ومجايليه، ونأى بنفسه عن مواطن شبهات الاتصال بأحد، أو الحديث الأرعن في أمر يتعلق بالشأن العام، والتصق فقط بأخيه – الذي يعمل في سنترال المنصورة – متجنبًا ما يمكن تصنيعه كقرينة زائفة مفتعلة تومئ إلى ارتباط بأي من كان.

وكان اضطر إلى العمل في ورشة ميكانيكا على مشارف صهرجت الصغرى تخصصت في إصلاح سيارات النقل حتى ينهض بمصاريف التعليم، ويعين والدته وأخيه على تدبير معايش الأسرة.

واختزل وقائع أيامه – بعد ذلك – في الانكباب على الاستذكار، وأداء الفرائض في زاوية صغيرة ملاصقة دارهم، مستعصماً إزاء الخطايا، وملتزمًا الصراط المستقيم، وعلى الرغم من ذلك سكنه يقين كبير بأن دوره قادم، وأنه – بين لحظة وأخرى – سيجد نفسه متهمًا بشيء ما لا يعرف كنهه أو دلالته، لا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم.

وما بين الغضب والخوف تشكلت ملامح ذلك الشاب، الذي أصبح – مضطرًا – ابن كليهما.

وحين تحصل سمير شهادة الثانوية العامة، والتحق بكلية العلوم في جامعة القاهرة، ابتعد – جفلًا – عن التواصل مع زملاء السكن والدراسة – تواصلًا مع ما اعتاده – خاصة من استشعرهم جزءًا من دنيا السادة الذين استكبروا استكبارًا، وكثيرًا ما كان يعود إلى غرفته في المدينة الجامعية – مهرولًا متكفئًا– إذا تجمهر الطلاب متظاهرين في ساحة الحرم الجامعي.

ولاحظ سمير أن جاره القاطن غرفة ملاصقة، عازف – كذلك – عن مخالطة زملائه ومحيطيه، واقتصرت علاقتهما على غمغمات مبهمة يتبادلانها على سبيل تحايا الصباح أو المساء، إذا جمعتهما صدفة اللقيا، ثم بدأ يسمع عن مكانة الشمردل العلمية الممتازة في الكلية، واحتفاء الأساتذة بنبوغه وتفوقه.

وذات ليلة – ظنها المنتظرة – جحظت عينا التميمي توقعًا، حين تتابعت طرقات على باب حجرته، ونظر حوله بسرعة – مستعرضًا محتويات غرفته متخيلًا أيها دليل إدانة في يد واحد من الذين لجوا في عتو واعتادوا انتزاع أحد أهليه من بيته، وقياده إلى حيث سكة من يروح ولا يرجع.

وبعد تردد طال، فتح سمير الباب – فيما ابتلع ريقه وتلاحقت أنفاسه– ليجد أخاه القادم من صهرجت حاملًا سلة من الخوص ومعه الشمردل ماثلين بالباب، وابن «مِعجِبة» يتمتم – مبررًا في خجل – «لم يك يعرف غرفتك ودق بابي فاصطحبته إلى هنا».

وبرطم سمير بما لم يبن داعيهما إلى الدخول، وحين حاول الشمردل التملص منسحبًا، أمسك به الضيف مصرًّا أن يجلس ويتناول معهما طعام العشاء الذي أرسلته أم سمير.. دجاجة عتقية محمرة وحلة من محشي الكرنب.

كانت تلك الجلسة الحميمية التي يعرف الفلاحون دلالة تقاسم العيش والملح فيها، مقدمة لبعض تخلٍّ من سمير عن تحفظه وتشدده، فصار يتبادل جُملًا أطول – قليلًا – مع الشمردل إذا صادفه، ثم راح الجاران الشابان يتبادلان الزيارات، ويترافقان في الطريق ذهابًا إلى الجامعة أو إيابًا منها، وأخيرًا اصطحب ابن «مِعجِبة» سميرًا – من وقت إلى آخر – قاصدين مطعمًا في (بين السرايات)، مذاق طعامه بيتيٌّ كمثل الشهد، وهو ملاذ آمن يقي من أكل المدينة الجامعية، إذا توافر بعض المال اللازم لإكمال المغامرة الغذائية.

وحين تحلقت مجموعة وائل السيوفي حول الشمردل، شادت أواصر علاقة مع التميمي بالتبعية؛ إذ كان سمير – بالنسبة لهم – بضاعة محملة على عربات قطار ابن «مِعجِبة».

ولم يتمازج سمير أو ينسجم مع الأولاد – ألبتة – وإنما تقبلهم إكرامًا لخاطر صاحبه الذي لم يعد يقدر على مفارقته، وبات له نافذة على الدنيا، والناس، وعوالم لم يعتدها أو يخبرها من قبل، فكان يرافقه إلى بيت وائل كل جمعة، ويصلي معه الفرائض جماعة، وحين أخبره الشمردل علاقته وكاميليا فرح بصديقه داعيًا بالتوفيق، وبأن يظللهما الله برعايته، ويقيهما شر المعاصي، وحفظ سرهما في بئر ليس له قرار.

ومن بين أفراد الشلة – كلهم – آثار بشير نفور فتى صهرجت، وأذكى رغبته الابتعاد، وبخاصة حين توقف منزعجًا أمام اسم أبيه: العقيد محمود جار النبي.. الذي خدم – ملازمًا – في المنصورة، وقاد قوة ضخمة مقتحمًا بيتهم، ملقيًا القبض على أبي سمير في قضيته الأولى.

كثيرًا ما التقت نظرات الولدين عاكسة قلقًا، وتربصًا، وتوقعًا، وكراهية دفينة، متبادلين جميعًا.

وزاد من توتر التميمي، بعض سخيف العبارات التي تعود بشير نثرها عن لحيته، وصلاته، و«العيال» المتصورين قدرتهم على ضرب النظام، والذين يمكن لمهم كالغانيات في ساعة زمن.

.....

كان سمير التميمي مساحة عصية على بشير لا يستطيع مزاحمة الشمردل فيها أو التضاغط معه.. بالضبط مثل تلك الكاميليا الرائعة التي ظهرت – فجأة – على مسرح الأحداث، على الرغم من السنوات الثماني التي تفصلها عن ابن «مِعجِبة».

صحيح أن بشير يعيش قصة مبشرة مع ابنة شقيقتها، ولكن كاميليا بدت له أنضج، وأكثر مدعاة للاشتهاء والهياج، ثم إن تجاوبها مع ذلك «البلدينا» هو سر مستغلق عجيب، استنفر كل فضوله، ومحاولته كشف الغموض، والانتقاص من غريمه.

وطفق ابن البطل يحقن أباه العقيد بما يثير وساوسه وهواجسه حول سمير التميمي، خاصة أن محمود جار النبي كان جاهزًا مقدمًا لإدانة ولد يحمل لقب «التميمي» الذي يعرفه الضابط حق المعرفة.

.....

أربكت التعليمات المتسارعة المتضاربة من الشمردل سائق سيارة الأجرة التي استقلها من ميدان طلعت حرب بعد إسدال الستار على الفصل الأخير من مسرحية بشير جار النبي.

أراد الرجل أن يذهب إلى المكتب، ثم ساءل نفسه: «لمن؟».

وتحسس أوراقًا أودعها جيب سترته الليلة الماضية، وهم بأن يطلب إلى السائق الإسراع بغية اللحاق بسيده في الجامعة، ثم تذكر فارتد بسرعة.

وفكر أن يتجه إلى بيت الدكتور في «ميراج» فإذا بالكلمة ذاتها تتحداه مزدرية: «لمن؟».

فلما أراد أن يولي وجهه شطر منزله بالدقي، كيما يعكف على ورقة علمية خلص إلى هيكلها ونتائجها مؤخرًا، تمتم ناظرًا إلى سحنته في مرآة السيارة.. «لمن؟».

لم يقدر على صلب طوله كما تصور.

لم يستطع رفع رأسه كما توقع.

ظل مكومًا في ركن الأريكة الخلفية لسيارة الأجرة لا يعرف ماذا يفعل، وكأنه يبحث عن القوة المجرمة الرهيبة التي تعود ضغطها لسنوات طوال، وهى إن زالت، ظل منصاعًا لذكراها، فانكسر كما كانت تبغي، وأخلص الانكسار.

فرح بالحرية سويعات، ثم راح يبحث – من جديد – عن الطوق ليضعه حول رقبته، ويقيد نفسه، ناهرًا وداعيًا إلى مزيد خضوع وانحناء، لم يفعل الشمردل شيئًا سواه طوال ثلاثين عامًا، حتى بات مبرر وجوده الذي بغيره وجب عليه التقاعد راحلًا عن ساحة الحياة بأكملها.

.....

طلب الرجل إلى قائد سيارة الأجرة الوقوف، مجمدًا شلال احتجاجات السائق الدافق، ونزل متلفتًا حوله، إلى نظرات الناس، وإيماءاتهم، ضحكاتهم، وإشاراتهم، يخالها – أجمعين – تسخر منه ورأسه المطرق، وظهره المقوس المحني.

.....

«ما الذي تعرف عن هذا الولد؟».

بدا السؤال الذي طرحه العقيد محمود جار النبي – بنبرة هادئة لزجة وصارمة – مباغتًا بالنسبة للشمردل، الذي لم يفق من هول صدمته حين شاهد سمير التميمي حافيًا، معصوب العينين، جالسًا القرفصاء، متورم الشفتين والوجنتين، فيما ازرقت إحداهما بكدمة كبيرة، وجمد بعض الدم غامق اللون تحت أنفه، وعلى جانب فمه.

.....

obeikandl.com

ومضت الأحداث كالبرق خاطفة، منذ اقتحمت قوات الأمن المدينة الجامعية في الثالثة صباحًا، مجتاحة طوابق مباني السكن كإعصار، خلف وراءه أبوابًا مفتوحة، ومتعلقات متناثرة، وكتبًا وأوراقًا مبعثرة، وكان المخبرون والعساكر والضباط يقبضون على كل من صادفوا في الطابق الذي قطنه سمير والشمردل.

ووسط نداء أجش مرعب يأمر – زاجرًا – بالإسراع، وطرقعة أكف على الأصداغ والأقفية، وصرخات مفزوعة، وأصوات ارتطام أجساد بالأرض، وجر بعضها الآخر على سلالم الدرج، اقتيد الشباب حفاة بملابس النوم إلى إحدى حافلات النقل المغلقة إلا من نوافذ صغيرة ذات قضبان، صارخين من أعماق جماجمهم، حين مرقت مركبتهم مخترقة شوارع العاصمة، ومحاطة بسيارات شرطة تضوي اللمبات الحمراء فوق سقوفها، وتعوي سرائنها في جنون:

«إصحي يا مصر»!!

obeikandl.com

3

«وحرر المحضر، النقيب شريف الدالي ضابط الشرطة في قسم الدقي، برقم 9538 إداري – الدقي، وجاء فيه: أثناء تفقد عريف الشرطة إبراهيم أبو السعود، وزميله عطية عفيفي الحالة الأمنية في منطقة بين السرايات مساء يوم 5 يناير 1990، ساعة 1900، وأمام الباب الرئيسي للمدينة الجامعية، تلاحظ وجود أحد الشبان جالسًا على الرصيف في حالة ضحك هيستيري، وصراخ، وهياج (سمير حسن التميمي الطالب بالفرقة الثالثة قسم الكيمياء بكلية العلوم جامعة القاهرة – بطاقة رقم قومي: المنصورة 219601873) وقد التف حوله جمع من زملائه يشاركونه الضحك والضجيج، وفروا جميعًا لدى شعورهم باقتراب فردي الشرطة، عدا واحدًا (الشمردل محمد البتانوني شمردل الطالب بنفس الفرقة والكلية – بطاقة رقم قومي شبين الكوم 2196041288)، وخلال ذلك الاقتراب أخرج الشاب سمير سرنجة من جيبه وحقن بها نفسه، فمال ناحية الأرض على الفور غائبًا عن الوعي، واتصل فردا الشرطة بسيارة إسعاف، وأثناء قيام المسعف – بمعاونة فردي الشرطة – بحمل الشاب إلى السيارة، وقع واصطدم بباب العربة، فأصيب بالذراع، واحتك وجهه بحافة الرصيف بما أدى إلى تجمع دموي أسفل العين اليمنى، فضلًا عن عدد من السحجات والكدمات المتنوعة.

obeikandl.com

وتم نقل الشاب إلى المستشفى، ولكنه كان قد فارق الحياة.

النقيب شريف الدالي

ضابط قسم شرطة الدقي»

.....

طالع المستشار كامل رزق المحامي الأول لنيابات الاستئناف بالجيزة تقريرًا عن محضر تحقيقات الشرطة، متشككًا في الرواية التي قرأ سطورها، ثم تمتم – متنهدًا – مليًا على كاتب يجلس إلى جواره، ما كان ختامه:

«وبناء عليه نأمر باستدعاء كل من عريف الشرطة وزميله، ورجل الإسعاف وزميله، والشمردل البتانوني المقيم بالمدينة الجامعية في بين السرايات للاستماع إلى أقوالهم، كما نأمر بانتقال النيابة لمعاينة المكان، وتحديد الأشخاص الذين شهدوا الواقعة، وكذا بتشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة».

.....

لم يبق في دماغ الشمردل – حين دلف إلى غرفة تحقيق النيابة – غير ما قام العقيد محمود جار النبي بتحفيظه وتلقينه وقت احتجازه في مقر مباحث أمن الدولة بلاظ أوغلي:

«سمير كان يجلس على الرصيف أمام سور المدينة، وقد تعود تعاطي المخدرات بالحقن والأقراص، وحاولت نصحه مرات، ولكنه أبى وواصل السير في طريق الانحراف، وعمدت إلى البقاء جواره معظم الوقت حتى لا يصيب نفسه بمكروه، وليلة الحادث وقفت معه أمام بوابة المدينة، فيما أحاطه بعض أصدقاء السوء الذين طالما حذرته من رفقتهم، يتلفظون بكلمات بذئية، ويضحكون بصوت جهير على كلام سمير المتلعثم المخربط،

وحين شاهد الشبان رجال الأمن يقتربون خافوا أن يكون الهدف إلقاء القبض عليهم، ففروا هاربين، وبقيت مع سمير الذي فاجأني بإخراج سرنجة من جيبه، وحقن بها نفسه ثم وقع على الأرض، ووصلت سيارة إسعاف، وأثناء حمله إليها سقط من على النقالة، واصطدم بباب السيارة، كما ارتطم وجهه بحافة الرصيف على نحو عنيف، وركبت سيارة الإسعاف معه إلى المستشفى، ولكنه مات في الطريق وهو يوصيني بوالدته في صهرجت».

.....

جرب الشمردل الخوف قبلًا، ولكنه في تلك الأيام الأخيرة احترف ذلك الخوف، الذي دهسه، فعصه مثل عقب لفافة تبغ في قاع منفضة سجائر.

بات جنديًّا مخلصًا في صفوف جيش من مشاعر الرعب، يواصل الانسحاب من دون توقف، مسرعًا، مهرولًا، متكفئًا وفارًّا من وجه قوة مروعة تدب على الأرض زاحفة في بطء رهيب، ساحقة كل من يعترض سكتها، أو يفكر في ذلك.

صار الشمردل رمادًا من دون حريق.

وأصبحت معاني الاعتزاز والاستقامة شموسًا غوارب في سمائه التي غدت كالحة لا لون لها.

جره المخبرون – لمرات – إلى مكتب محمود بك جار النبي؛ ليتأمل – برعب – ما حاق بصديقه سمير، الذي تدهورت حالته على نحو مضطرد ومحسوس مرة بعد أخرى، حتى سحبه الجنود – في اللقاء الأخير – مجرجرين جسده فيما لم تقو ساقاه على حمله، ودفع أحد المخبرين دماغ الشمردل من الخلف هامسًا بغلظة: «إنت ح تعيط ياله.. ماتخافش عليه ياخويا.. بكره

يقوم زي القرد.. على أي حال ولا هو شاعر بحاجة أنا اديت له امبارح حقنة مخدر وشوية برشام.. جدعنة يعني عشان ما يحسش».

وفي كل لقاء كانوا يرفعون العصابة من فوق عيني التميمي فتلتقي نظراته وجه صاحبه، مستحلفته ألا يكفر بآيات الصداقة، والعيش والملح، والإخلاص لكليهما، وألا يرتد عن عقيدة الكبرياء واحترام النفس، أو يعلن اعترافه بالبيان الأول الذي أذاعه محمود جار النبي مطالبه بالتنازل عن عرش الاستقامة، والشهادة الزور ضد صديقه.

كان قلب ابن «مِعجِبة» يرفرف كعصفور حبيس أعمى، يتوقع ضربة قاتلة تأتيه من أي اتجاه، ويزداد رعبه كلما غابت أو تأخرت، فيما ارتسمت في مخيلته – على نحو دائم – قسمات وجه العقيد محمود الذي بدا كالموت لا يرثي لباكٍ.

شعر الولد بمعنى الخوف.. يضربه مكتسحًا.. يطيحه ويهزمه مورثه اقتناعًا بالضآلة والحزن الأبدي.

الكيمياء.. وتفوقه الأسطوري لا يساويان خردلة.. مليمًا في المكان الذي يقف فيه الآن، وقد عز فيه بصيص ضوء يعد بالنهار.

هو وأهله و«مِعجِبة» كلها، بل وربما البتانون ذاتها، مجرد هيكل من ورق مقوى، إن أطبقت كف ذلك الجبار العتي عليه أحالته مزقًا، وهلاهيل، ودفنتهم – أجمعين – تحت أنقاض ما تصوروه منجز حياتهم، وبناءها الذي راكموه جيلًا وراء آخر.

لم يك يعرف سبب اعتقاله وسمير مأسورين في تلك التجربة المروعة، ولكنه – حافيًا – كان يتخبط في الممر الذي يفضي إلى غرفة محمود بك

عديمة النوافذ، ذات الباب المبطن بالجلد الغامق، وهناك يرى سمير حين استجوابه حول أمور – بيقين – لم يسمع الشابان عنها أو يعرفا، وزاد من حيرته وتخبطه أن أحدًا – في كل هاتيك المرات – لم يوجه إليه سؤالًا واحدًا.. كلمة واحدة.

عاش فريسة للخوف، يتوقع شيئًا في كل لحظة، ويخاف الخوف ذاته.

أنشب الرعب مخالبه في روحه، وانقض عليه – كجوارح الطير – ينهشه، يمزقه، ويجندله – صريعًا – على الرمال، غارقًا في دمائه كعصف مأكول.

الخوف إحساس أسود، خانق، مؤلم وقاتل، يُشعر المرء أن كل أشيائه التي ناضل – العمر بطوله – ليكومها فوق بعض طبقات، هي – محض – زبالة، وبقايا مقرفة حق عليها الحرق؛ لأن وجودها – في ذاته – هو اجتراء يلوث عالمًا، ناصعًا، نظيفًا وضاء، هندسه السادة من عناصر أخرى هي – وحدها– المؤهلة للبقاء؛ لأنها ترتبط بالأصلح، الذي هو الأقوى.

استدعاء يلي آخر، ولقاء يلحق بسابقه أو يحاول، والشمردل يتهاوى.. يتآكل، وفي إحدى المرات لم يتمالك، فبال على نفسه مغرقًا أرضية المكان، باكيًا بصوت عال يستصرخ محيطيه، سائلهم الرحمة، فيما العقيد محمود، يومئ – متحدثًا بهمس لزج قليل الاكتراث – إلى بعض المخبرين ليؤدبوا ذلك العيل الخائب الذي عملها في بنطاله، ونَجَّس الغرفة.

وبعد تلك المرة لم يلتق الشمردل سميرًا، ولكنه ظل يُستدعى إلى مكتب العقيد؛ ليقف على قدميه دون السماح بثني إحدى ركبتيه أو كلتيهما لساعات، ومن غير توجيه كلمة واحدة إليه.

تعب الولد وشاخ، ونمت في صدره أقانيم جاهزية لفعل أي شيء يحمله إلى خارج ذلك الجحيم، أو يهبه مفتاحًا لبوابة منيعة عملاقة أمعن الشيطان إغلاقها.. بات على استعداد أن يدلف إلى ساحة منفاه مغادرًا اعتزازه بنفسه، قاصدًا غربة في الغربة، ووحشة في الوحشة؛ غربة الذل في الفقر، ووحشة اليأس في القهر.

وفي أحد الاستدعاءات حدثه العقيد محمود، غير ناظر إليه، وبالهمس نفسه الساقع الذي يشيع قشعريرة في نفس من يسمعه، كمثل تلك التي يستولدها مرور أفعى ملساء فوق جلد بطن إنسان:

«شمردل.. نحن نعرف أنك بعيد عن ذلك المجرم الذي استهدف بلدنا ونظامنا.. وعلى أية حال فإن الله يمهل ولا يهمل، فقد حقن نفسه بكمية ضخمة من مخدر (دتريفان) أودت بحياته اليوم.. ولكننا نريد تقفيل القضية، وإنهاءها تمامًا، حتى لا يضار أبرياء من أمثالك، وبالتالي ينبغي أن تكون أقوالك في النيابة، بعيدة – تمامًا – عما شاهدت هنا وقد رتبنا مع الشهود، كما جهزنا بعض العناصر الفنية التي تحبك كل شيء».

بدرت نظرات واجمة كسيرة من عين الشاب المحطم، فيما هز رأسه بالموافقة، وسالت عبراته تنعي رجولته، وتوضأت بها أحزانه، توطئة لصلاة يودع فيها عالمه القديم، وبدا الولد فارسًا مقهورًا يريد أن يميل على سيفه منتحرًا، فيما أكمل جار النبي: «سوف تحفظ بالحرف ما أردده عليه الآن، ولا تخرج عنه في حديثك مع المستشار رئيس النيابة.. أريدك أن تكون عند حسن ظني.. فاهم ياشوشو».

وثنى الشمردل موافقًا ومرافقًا بهزة رأس، قابلًا بتلك الكنية الجديدة المهينة، التي نزعت عنه آخر أوراق احترامه لنفسه.

بدا ابن «مِعجِبة» مشركًا يطوف بمعبد يتلو فيه أورادًا للشيطان، أو قوادًا يضيء قنديلًا على بوابة بيت دعارة، محني الرأس أمام قاطع طريق جائر، متسولًا على رصيف رضائه، عروسًا تلعبها خيوط يتحكم فيها سيد فظ غليظ القلب، لم ينفض أتباعه وزبانيته من حوله، وزَلزلت الأرض – من تحت قدمي الشمردل – زلزالها.. اجتاحها طوفان دماء ودموع، وضربها إعصار عدم اليقين، فيما انفلقت سماء المثل العليا والأخلاق، وانفجرت كواكبها الدرية، فتشظت شهبًا، ونيازكَ لا تحرق سوى الفلاح الشاب وتكوي منه الروح، والقلب والوجدان.

وانضم الولد إلى طابور الخصيان.

خرج الشمردل ليعتزل العالم في غرفته بالمدينة الجامعية، زارفًا الدمع مدرارًا، أسيانًا، مفجوعًا، شاعرًا أنه شيع نفسه لا سمير، وسكنه وهم سماعه صوت أنين انحناء عوده تحت وطأة جبروت الضغط.

عود الرمان لا يعرف الانثناء.. ولكنه يوشك على الانكسار.

ولأيام كان الشمردل محلًّا لاستجواب آخر من شقيق صديقه يسأله في ملامة مريرة: «هل عرفت يومًا عن سمير تعاطيه المخدرات؟.. أية قوة مجرمة دفعتك إلى ذكر ما أدليت به من أقوال؟.. هل قررت أن تغسل راحتيك من الشرف – مبكرًا – حتى تنطلق خفيفًا إلى حيث تطمح في مستقبل وضاء من دون عوائق أو عقبات؟.. هان عليك سمير والصداقة والمحبة وذكريات الرفقة والزمالة، فهل تقدر – عمرك – على نسيان وجهه الذي تكفن بالطيبة

والكبرياء؟.. قتله منون القسوة بلا قتال في معركة غير متكافئة لم يك دونها من الموت واق.. وكنت يا حبيب قلبه شريكًا في القتل معلنًا أن للرجولة كما للناس آجالًا.. دم سمير في رقبتك وحسبنا الله فوضنا إليه أمرنا».

.....

كشواظ من لهيب حرقت كلمات شقيق سمير قلب الشمردل، فازداد إحساسه بأنين فرع الرمان حين تضغطه قوة لا قِبل له بمقاوحتها ومقاومتها.

هي القوة نفسها التي امتلأ بها ابن الضابط، الممتلئ بكراهيته.

كان بشير جار النبي أول من حرص على زيارة الشمردل في المدينة الجامعية بعد إطلاقه؛ ليكحل عينيه برؤيته كسيرًا، ذليلًا، مهيض الجناح.

جلس ابن «مِعجِبة» على الأرض إلى جوار فراشه، حاضنًا ركبتيه، متكورًا كجنين لشاب آخر يوشك على الميلاد.

ورفع رأسه ببطء حين انفتح باب الغرفة، وسهم ثم أطرق – ثانية – بتهالك.

أطل بشير برأسه وتبسم ودخل، ليجيل بصره في أنحاء الغرفة التي لم تعد نظيفة ذات طهباج وترتيب، وإنما غدت عنوانًا على فوضى غير خلاقة.

«الحمد الله على السلامة يابلدينا.. واللا تحب أقولك ياشوشو؟!».

وضحك بشير – بسعادة متلألئة – قبل أن يواصل:

«أريدك أن تشد حيلك.. الأعمار بيد الله.. وعلى العموم ذلك الولد لم يك مريحًا أبدًا.. ولكنني لم أك أتصور أن تصل الأمور إلى المخدرات».

احتقنت عينا الشمردل حتى شارفت شعيرات الدماء فيهما الانفجار، صارخة بالاحتقار في وجه ذلك الولد المجرم، ولكن الشاب الريفي عاد فأحنى رأسه في خضوع.

وانطلق بشير مستعرضًا بنود جدول أعمال علاقته الجديدة والشمردل، عاقد الذراعين خلف ظهره، ومتمشيًا في الغرفة، أو متوقفًا بغتة، ملونًا نبرات صوته بين الآمرة الزاجرة، والفكهة الساخرة، مشيرًا إلى ضرورة قيام الشمردل، بكتابة كل أوراق بحوث أعمال السنة بالوكالة عنه، فضلًا عن نقل المحاضرات، وإعداد الخطب التي سيلقيها ابن الضابط في انتخابات اتحاد الطلبة، أو الندوات والمؤتمرات في الجامعة، أو حتى كتابة بعض الأسئلة لمهاتفة برامج التلفاز الحوارية وطرحها على الهواء؛ إذ تعجب تلك المسألة الأقارب والجيران وتصادق على سمو المكانة.

لم ينبس الشمردل ببنت شفة، وتتابعت أنفاسه صعودًا وهبوطًا، فيما وهم أنين صوت الانثناء يعود ليحتل وعيه، ويهيمن عليه.

وبدا بشير كمن تذكر شيئًا لا ينبغي أن يفوته فخاطب الشاب المحطم بافتعال:

«ثم ما حكاية كاميليا.. أنا مندهش.. بدلًا من أن تذاكر وتحفظ دروسك، أو تعود إلى بلدكم لتعمل في الغيط، أجدك متفرغًا للحب، ومسك الأيادي، وتسبيل العيون.. أظن أنك محتاج إلى وضع حد لتلك القصة، أو ربما أضع – أنا – ذلك الحد»!

جمد الشمردل متأملًا – في ضعف – ذلك الرجل الصغير الماثل أمامه، والذي امتلأ قلبه حتى الحافة ببغض هائل، ثم فاض على الجوانب، أو سرب قسمًا من كراهته عبر ثقب صدئ في ذلك القلب آخذًا في الاتساع.

لم يعد قادرًا على حماية حبه لكاميليا؛ لأنه لم يك قادرًا أن يدافع عن صداقته بسمير.

سقط أول أركان جمهورية الشمردل الصغيرة حين رحل رفيقه الريفي، وتصدعت جدران قصره الرئاسي من أعلاها إلى أدناها، فيما قسمتها شقوق كأغصان جافة في شجرة جدباء، واهتزت النجفات متأرجحة، وارتعشت ذبالات الضوء الشاحب حتى خبت، وأحاطت سرايا بشير جار النبي المبني منادية ابن مِعجِبة بالتسليم والخضوع، والركوع، وتعفير الجبهة بتراب وقف عليه نبي القسوة، والتفاني في نثر الروح تحت نعل حذائه فتافيتًا من الكبرياء.

انتهت حماقة الشمردل وأهله، حين أرادوا العبور إلى البتانون أو ما يجاوزها.

اليوم.. لن يخطو ابنهم العبقري الأعجوبة خطوة إلا بأوامر سيده، ولن يكون مسيره إلا خلف بشير، أو إلى حيث يريد.

عاش الفتى كطائر ساذج، ضرب الهواء بجناحيه، مندمجًا في حلم خلاصه مطالبًا، ثم متماديًا ومحاولًا انتزاع قلادة تفوق وامتياز.

هَمَّ بأن يتخطى أكتاف السادة وبنيهم، وسبق بخطوة أو نصف طواويس البلد المنفوخة، وديكتها الرومية المنفوشة، فحق عليه الذبح بنصل بارد كيما لا تنتشر عدوى إنفلونزا المساواة، أو أعراض الحرية، فترفرف كل طيور البلد، وتكاكي – متصوفة مجذوبة – تنادي العدل، متصورة أن زمانًا رائعًا حَلَّ، وأن عذابات الزمن الحالي حزمت كل حقائبها وفرت عند الفجر.

.....

أمسك الشمردل بتلابيب قطار يحمله على وجه السرعة إلى «مِعجِبة» لائذًا بحضنها من قهر السلطة الضاغط، وعذاب الضمير الحارق، ودعاء شقيق سمير واحتسابه – الصادر من صميم القلب – على الذين اغتالوا أخاه، أو سلموه قربانًا يفتدي سلامتهم وأمانهم.

ولكن «مِعجِبة» كانت – ذلك اليوم – بلدًا آخر.

اكتسى المكان غلالة رمادية كابية، وبدت أشجار التوت والجميز متهدلة الأوراق حزينة، عزيزة الثمار إلا مُرها، وبعدت البتانون حتى صعب على القلب قبل العين إدراكها، وخيم صوت الصمت على الأزقة محيطة منزل الشيخ شمردل، في حين توقفت كل الأنشطة الحرام حميرًا، وحشيشًا، ونسوانًا.

ووسط سكون رهيب رافقه استغراب الفتى العائد ونظراته المتسائلة، شق صوت جدته شفاه الصمت مناديًا في بحة مسلوخة متقطعة: «يا مُجبرة يا خيمة الوالي.. ياما جبدنالك من الغالي.. لا روح على الحفار وأجول ليه.. شعر الصبية من التراب لميه» ثم تعالت صرخات نسوة تشيع إلى مسامع الولد خبر رحيل بدرناس.

.....

بدرناس.

نص عبقري في الطيبة والتحنان.

قصيدة غزل لا تنضب أبياتها أبدًا، ينشدها الراوي مخترقًا ديارًا وقفارًا من شلال أسوان، إلى مصب رشيد.

هي الدهشة في وجه بريء يشف عن مشاعر صافية رقراقة.

تتجمل الدنيا في استقبالها فيبدو تراب الزقاق رخامًا أبيض شاهقًا رطبًا منعشًا تسير عليه متهادية سامية نبيلة، بالقدمين الحافيتين المنقوشتين بالحناء الأسوانلية الغامقة، متمايلة – في احتشام ووقار – بالجسد الملفوف الطري المتماسك، الذي يصرخ بحضوره من وراء حجاب.

هي الحسن كاد أن يتكلما.

خطوط الوشم الرائع على الذقن تؤكد جمالها تحت الشفاه البضة المكتنزة، التي ترفض الزكاة عن حسنها بقبلة لأحد الجائعين.

وصفَّان من الأسنان اللؤلؤ في محارة ثغرها البسام، يضيئان حين تنفرج الشفتان.

عيناها الواسعتان كسماء موحية، مدهشة، تسحبان متأملهما إلى طبقات سبع من إحساس عبقري بالارتباط، فيسري في سحرهما غير أواب إلا حين تسبلهما في حراسة رموش سوداء مشرعة طويلة، ثم يعيش العمر – بعد ذلك– داعيًا المولى، مستحلفه بحضرة النبي والأولياء أن يهبه نظرة أخرى.

شعرت – لما فارت باكرة في سن العاشرة – بجمالها وأنوثتها، فتصوفت في نظافتها وعنايتها بكل ما يرتبط بهما.

اعتادت تلميع ساقيها بالعسل الأسود، والجلوس في طِشت الماء الدافئ المخلوط بالدماسيسة والغُبيرة معطرة جسدها ومسبحة نفسها، فضلًا عن تمشيط شعرها بزيت الزيتون وسبسبة خصلاته على الجبهة من تحت منديل الرأس ذي الأوية، والذي يبدو تاجًا يصطخب بحفلة ألوان وبريق.

حين تنظف الدار، أو تجرى لشراء بعض عشب من بائع يصيح: «الشيح في البيت مليح» وتنثر ربطات الشاش الصغيرة التي تحويه في أركان الدار لدرء الحنشان والعقارب، وحين ترعى دواجنها وتطلق البخور الجاوي يوم الجمعة قبل الصلاة، وحين تنام في حضن الأب، كانت تبدو مبدعة ترسم لوحة، أو تنسج مفرشًا، وتداعب أوتار ربابة.

وإذا ما راحت تطهو، فاحت في كل الزقاق روائح المسك، والمصطكي، وحب الهان، وتوالت اعترافات نسوة البلد مكرهات - بعد هزيمة مشاعِرهن التقليدية الغيورة - بأن أكل بدرناس - بحق - هو الطعوم الطاهر، وأن مطبخها كالفل، وأوانيها مغسولة تشف وترف، وقد أمعنت نظافتها والتشهد عليها.

كان لسانها يقطر شهدًا مع كل الناس.. طيبة.. شهمة، تسارع إلى نجدة الملهوف، أو معاودة مريضة من جيرانها، أو تتطوع ناهضة بشغل بيتها ورعاية عيالها، أو تطلب - لحوحًا - من أبيها بعض المال، لتصره في منديل يدها وتدسه في صدرها، حاملته إلى امرأة معوزة، أو رجل عجوز ضربته الحاجة.

انتظرت فسحتها كل شهر حين يحل موعد عيادتها عمها الشيخ شمردل وزوجته شفاه في «مِعجِبة»، حاملة زيارة هي بعض خبيزها من العيش الشمسي، أو جرة صغيرة من عسل القصب الذهبي الفاتن، أو شالية قشدة فلاحي، تلفها بخرقة مبللة حتى لا يفسدها الحر.

وكثيرًا ما لفتتها تلك الإيماءات المجرمة التي أمطرها محمد البتانوني وِلد آبا شمردل إياها، فتجاهلتها في البداية، مندمجة في جدل داخلي صاخب ورائع - لدى عودتها إلى بلدتها - حول معنى ومغزى تلك النظرات، ومتقلبة على

فرشتها فوق الفرن شتاء، أو على سطح الدار صيفًا، تحلم بالواد محمد ابن عمها الأسمر المِتع، ممشوق القوام، ذي الرقبة الطويلة القوية كجذع شجرة.

وزيارة وراء أخرى تبادلت بدرناس النظرات مع ابن عمها، وضحكت مفصحة عن أسنانها شاهقة البياض، وغمازتي الخدين الرائعتين، ثم تحول الولد إلى هدف الزيارة وسببها، وبخاصة في خاتمة اليوم عبر تلك التوصيلة الرائعة إلى محطة السكك الحديدية في البتانون، والتي ظللتها عناوين شديدة الأخلاقية عن حراسة بنت العم وحمايتها.

وفي إحدى هاتيك التوصيلات همس محمد البتانوني من دون الالتفات أو النظر لبدرناس – التي سارت خلفه بخطوة كعادة النسوة اللاتي حسُنت تربيتهن – بعزمه زيارة أبيها في سوهاج لأمر يخصها، فتبسمت البنت، ساحبة طرف طرحتها على فمها، موشوشته من دون أن تنظر إليه كذلك: «اللي تشوفه يا محمد.. تنور الدنيا كلها».

وكان ذلك الحوار إيذانًا بخروج شرعي للبنت من تحت سقيفة الأب، وصندوق ثقافة هيمنة الأم، الذي يبدو في الخيال الريفي النسوي الجمعي، أحدبَ مطعمًا بنقوش بديعة بين الخشب والمعدن، ومليئًا حتى الحافة بنواهٍ وأوامر وإلزامات ومحرمات.

وعبرت بدرناس إلى عالم آخر خارج حدود الحمائية المتزمتة للأسرة، مستسلمة لحمائية أخرى متشددة في بيت زوجها.

وفي «مِعجِبة» عاشت الزوجة الصغيرة في دار عمها، حاملة شفاه، وسي محمد على رأسها، ومشيعة في المكان روح الطيبة والحب والتحنان.

استقبلت بدرناس أيام الزواج الأولى محتلة بهاجس الحمل والخلف، كما كل نسوة بلدها اللاتي شببن على حدوتة (بيض الحَبَل) عن رجل فقير، وامرأته عاشا في هناء ودعة يزرعان بتنين من الأرض، ويرتزقان ثمارهما من الخضار، ولكن عدم الإنجاب نغص حياتهما، وبالذات حين بدأ الرجل يكبر، وأصابه رعب انقطاع جذر أسلافه، كما سكن خوف العقم قلب امرأته، ملوحًا – في تهديد – بمنحها لقب «عاقر».

وذات يوم ذهب الرجل إلى الغيط، وسمعت الزوجة – دهشة – بائعًا ينادي في أزقة البلد: «بيض الحَبَل يابنته.. بيض الحَبَل يابنات» فهرولت إلى باب الدار، ونادته متسائلة مستعجبة فأخبرها أن من تأكل ثلاثًا من البيض الذي يبيعه تحمل على الفور، فابتاعت منه ثلاثًا، وجاء من يناديها لعزاء وجنازة، فكفت ماجورًا فوق البيض، وهرولت خارجة، فلما عاد الرجل لم يجد ما يأكله، ورفع الماجور فعثر على البيض والتهمه، وسمعت الزوجة – عند عودتها – بما فعل فدبت على صدرها مرعوبة مستسلمة لإلزامات الخرافة، ولكنها أملت أن يكون التاجر غشاشًا باعها الوهم.

وبمرور الأيام بدأ بطن الزوج يكبر، وظهرت عليه أعراض وَحَم فاشتهى البلح والفول الأخضر في غير أوانهما، وألزمته الزوجة الدار لكيلا يتساءل الناس عن بطنه، فلما جاءه الطلق دلته المرأة على غيط أذرة في طرف البلد وراء الترعة، فذهب إليه ووضع ابنة جميلة وقطع سُراره، ثم خلفها وراءه، تاركها إلى مصيرها، مسرعًا في العودة إلى الدار.

وعثرت حدأة على الطفلة فالتقطتها وأسكنتها عشًّا في أعلى نخلات البلد، وراحت تخطف لها أجمل الطعام، وأروع الحلي الذهبية، وتشبعها، وتكسيها،

وتُصَيغها حتى صارت – من قمة رأسها إلى أخمص قدمها مغطاة بالذهب، فلما رآها الشاطر حسن – حين ورد نبع الماء تحت النخلة وأخذ جواده يصهل لاويًا عنقه إلى أعلى لافتًا نظر صاحبه إلى البنت – ناداها، داعيها النزول إليه، فيما تمنعت رافضة، خوفًا من أمها الحدأة، وطلب الشاطر حسن من عجوز القرية المحنكة الماكرة أن تعينه، فأتت بخروف سمين وراحت تحاول ذبحه تحت النخلة بمقلوب نصل السكين، ونادتها البنت مخبرتها أن سكينها لن يذبح إلا إذا استعدلته، وهنا رجتها العجوز متوسلة – ومتعللة ببصرها الذي كَلَّ – أن تساعدها، وحين هبطت البنت من النخلة تلقفها الشاطر حسن، وعاشا في تبات ونبات.

.....

خضعت بدرناس لعناصر الثقافة السائدة لدى كل نسوة بلدتها، والمحتلات حتى الشواشي بهاجسي العنوسة والعقم، فسارعت إلى إنجاز المهمة من الطلقة الأولى، وحملت في الشمردل الذي بُهرت الداية والجارات بحسنه حين زلطته أمه.

وعاشت المرأة أيامها ترعى الشمردل، وتصون هندامه، ونظافته، وترعى بيت الجد ومحمد البتانوني على نحو كان مبعث شعور رجال القرية بالإحن، واحتضنت الزوجة الشابة حماتها شفاه، وجعلت من نفسها خادمة لراحتها وسعادتها، تعيش تحت قدميها وطلبها، متمنية لها الرضاء لترضى، فأحبتها امرأة عمها، واضعتها في حبة القلب، وحنايا الأضلع. وباتت بدرناس وزوجها، والشمردل الصغير كل دنيا شفاه، وعالمها الذي لا تريد مبارحته ولو بخيالها أو تصورها.

ولكم تأملت النسوة نظافة ابن بدرناس، وحسدن تفوقه الدائم، الذي كان أبوه – تياهًا – يفاخر به رجال القرية في مجالس ما بعد المغارب.

ولما ذهب الشمردل إلى مصر مكملًا مساره التعليمي الذي تعلقت به آمال الأسرة ووصية الجد كيما يكون جسرهم الممهد، وطريقهم المعبد للعبور إلى البتانون أوما يجاوزها، جاوب الأب نداهة الهجرة للعمل في ليبيا بعد أن باع أرضه، كمعظم رجال القرية، واتصل أنبوب المدد المالي بينه وبدرناس، فيما انقطع أنبوب مدد الروح والجسد، ثم أخذت مبالغ البتانوني المحولة في التضاؤل حتى انقطعت تمامًا كما أخباره وخطابات الوصل، وعاشت المرأة في وحشة مريرة، مرعوبة أن يكون بعلها شاف شوفه طبقًا لدستور الخوف السائد في فكر الفلاحات، والساكن وجداناتهن حين يغيب الزوج أو يحتجب تراسله واتصاله.

سقمت الفلاحة رائعة الحسن، وذبل وجهها الذي كان بدرًا يشع بالضياء، وعاودت الحكيمة في الوحدة الصحية فأنبأتها إصابتها بالسكري.

وتدهورت حالة بدرناس – يومًا وراء آخر – حتى قعدت في الفرش، لا تقوى على الحركة إلا لمامًا.

وفاقم عربدةَ السكرِ في جسدها تلك المشاعرُ المتداخلةُ، والمشوشة بين الاحتياج لرجل، والشوق لمحمد البتانوني بالذات، والغضب عليه، والخوف الذي هو الأساس في نفوس نساء الريف، وإن تعددت مظاهره وأسبابه.

وحين توقفت حوالات البتانوني المالية، التجأت المرأة – مستثقلة – إلى أبيها الذي صار يقتطع بعضًا من قوته، ورزق بيته الشحيح كيما يستطيع الشمردل المضي في مسيرة التأهيل والتعليم لخطوة أخرى.

ثم اكتملت جوانب محنة بدرناس المأساوية، لما تورم قدمها، ونقلت إلى المستشفى العام في شبين الكوم؛ ليقرر الأطباء بتر ساقها الملوثة، وأمضت الست الرائعة أيامها، قعيدة، عرجاء، حزينة، تطارد آلام الساق المبتورة الشبحية، وتنادي شبح البتانوني البعيد كيما يعود وينقذها.

وكان الولد محتلًّا بعاطفة مشبوبة إلى تلك الأم الأنيسة، الحنون، المنصاعة للواجب والأصول، المحبة لابنها – الأمل، والضحية التي بات عليها مواجهة حياة متوحشة جردت في مواجهة ضعفها وقلة حيلتها كل المخالب والأنياب.

عاش مع أمه بقلبه، وتعود أن يعودها للاطمئنان كلما تيسر، وكان تدهور حالها الصحي أحد محفزات انكبابه على العلم، والدرس عله يسرع إلى معاونتها، والنهوض بمقتضيات عيشها.

وحين بدأت عاطفته وكاميليا تنسج خيوطها، ظل حلمه الماثل في مخيلته طيفًا لعرس صاخب بديع يجمعه وأميرة الفؤاد، التي خُلق تجويف راحتها ليحتوي شقاءه، ويستنيم ألمه.

العرس.. الحلم هو ما تصوره ضوءًا سينير دنيا بدرناس، حين خيم عليها إعتام إحساس الغدر والوحدة والخيانة والعوز والخوف.

أراد الشمردل – بكل خلجة في نفسه – أن يحمل أمه وكاميليا إلى البتانون على الضفة الأخرى لذلك الحلم، متخيلًا نظرتها المترعة بالحب، حين ترنو إلى ابنها يلصق خده على خد حبيبته، أو يتمرغ معها فوق مروج الحرية الخضر، أو يصلب طوله – بسنادة علمه وتفوقه – كفرع من الرمان خاصم الانحناء.

.....

على سطح الشاي في الكوب، كان الشمردل يركض خلف صور قديمة لبدرناس.. المرأة التي كانت جمهرة من النساء.. حروف لغته.. أبجديته.. حلمه.. أسطورته..

«اليوم مت مرتين..

مرة بقتل سمير وخيانتي ذكراه، وأخرى برحيل بدرناس وخذلاني أملها في أن يبيت ابنها رجلًا بحق.

سقطت كل قلاعي، واحترقت سفن الصداقة من ورائي، واصطخب بحر الحزن المتلاطم أمامي.

أقمت في دلتا الحيرة التي صب فيها نهر طويل من علامات الاستفهام.

انسكبت دموعي من مقلتيَّ غزيرة حتى باتت ستائر نافذتي التي تشف عن العالم، وبدت كقطرات مطر على النافذة، أو زجاج السيارة، أو عدستي النظارة.

اليوم تجلت نبوءَة شؤم نجمت بها إحدى عرافات الحلب لجدتي شفاه، فاستبطنتها في نفسها صامتة دهرًا، مكتفية بسحب نفس من علبة نشوقها الفضية المزخرفة التي تعود جدي شراء العنبر فيها، ثم أطلقت عطاسها زافرة وكأنها تزق كلام العرافة وتزيحه إلى أبعد بعيد.

(سيكون عقل الوِلد وبالًا.. إن كان ذكيًّا فليتغابى).. كررتها العرافة ومضت فيما لعنات شفاه تصفع مؤخرتها.

اليوم سمعت أنين عود الرمان، وأطرقت رأسي مجاوبًا ضغط القهر والموت، واستسلمت للخوف والحذر، لو كان ينفع خائفًا أن يحذرا.

لم يبق لي من سمير سوى أطياف المشهد المخيف، ونظراته المودعة، وصدى صوت شقيقه المفعم بالغضب وخيبة الأمل واستمطار لعنة السماء وانتقامها، وكلمات الاعتراف التي أملانيها العقيد محمود كنصوص في نشيد إنشاد عهد جديد من حياتي أطلعني بشير على إلزاماته وأوامره، عصر سأكون فيه خادمًا لسيد يملك أن يقتلني ويطيحني في الهواء كقلامة أظفر طيرتها قصافته.

اليوم جثوت على ركبتي أمام الخوف وأمام بشير وصرت عبدًا للاثنين».

.....

وفيما كان صوت المسجل يصدح بآيات الذكر الحكيم، اصطف الرجال على صفين متقابلين من المقاعد أمام الدار، وتحلقت النسوة نادبات معددات، لاطمات الخدود، باكيات بدرناس، تلك التي تجلى وجهها لولدها على صفحة الشاي، حزينة، آسفة، لم تدع له – ربما للمرة الأولى – بأن تضحك له سنبلة.

كل ما بقي من أمه كان خلخالًا ومكحلة.. سلمته إياهما شفاه من دون أن تنبس بحرف، فيما أملى حدسها عليها الصمت الجامد الواجم إزاء حفيدها، وللمرة الأولى كذلك.

.....

على مقعده في القطار، حاول الشمردل أن يتكيف مع حياة جديدة لاحت طلائع صائغيها من بعيد.

همس لنفسه بأنه ليس أول خطاء يتوب عن خطيئة الكرامة، ولن يكون الأخير، وأن الدنيا ملأى بأناس فقدوا كرامتهم، يعيشون، ويشربون ويأكلون، ويسكرون، ويمزُّون، ويتحصلون مالًا غامرًا، ويستمتعون متعًا

فاجرة، ويحترمهم المجتمع، ويحبهم السادة؛ خصوصًا عند لحظة التمرغ تحت الأقدام، كلبؤات مشوقات إلى العشار.

كما أن أيام المستقبل حبلى بالمئات.. الألوف من فاقدي الكرامة، الذين ارتضوا – مسبقًا وقبل لحظات الميلاد – أن يكونوا خدمًا للقوة ولأبناء الأقوياء.

هو نفسه شعر بأنه يحمل داخله شمردلًا جديدًا، كالرجل الذي انتفخ بطنه في حدوتة (بيض الحَبَل)، وأن وقائع المخاض دنت واقتربت.. وسيكون المولود مثل محمد البتانوني الذي لاك الجميع سيرته في عزاء بدرناس، راوين كيف حضر لدى الوفاة وطردته شفاه رافضة أن يتلقى العزاء في زوجته، بعد أن سبقته أخباره تحكي كيف رجع من ليبيا عقب شهور من سفره، ولاف على أرملة تاجر ثري في البتانون، وتزوجها ليقيم معها في مِلك الزوج الراحل.. العبور إلى البتانون – إذن – يمكن أن يقع من غير كل إرهاقات المذاكرة والاستقامة ومكابدة الاستمساك بالكرامة والكبرياء.

ولكن الولد لم يقدر على الاندماج – طويلًا – في هندسة وتشييد تبريراته، إذ ردته – في عنف زاجر – صور وأصوات يعرفها حق المعرفة..

جده شمردل السوهاجي ونبوته الصلب، وسته شفاه التي سهمت في لقائها الأخير به مطاوعة ما يمليه عليها إحساسها، رافضة الحديث إليه، وأمه بدرناس التي لا يلبث طيفها يتجلى مؤنبة، مطاردة، حتى في لحظات غشيته فيها سنة من الكرى بعد ما طال السفر، ثم صوت سمير وصورة أخيه المشيرين بأصابع الاتهام، وكاميليا التي..... التي.....

لم يك الشمردل يتوقع – حين وصل إلى القاهرة – أن يسمع كل تلك التطورات التي انهمرت مغرقته في عناوينها وتفصيلها.

تقدم علي الششتاوي لخطبة شادية كريمة الأسطى فتحي السيد على أن يتم عقد القران بعد سنة عند حصول العريس على الشهادة الكبيرة.

والقصة بدأت حين ضبط الأستاذ شحاتة الششتاوي ابنه منتحيًا بشادية ركنًا معتمًا في بئر السلم، ومنهمكًا في تقبيلها، فانقض عليهما سابًّا صافعًا، ومهددًا بإبلاغ الأسطى فتحي وقائع تلك الهتيكة، ثم أمضى الأيام التي أعقبت حادثة الضبط محاضرًا ابنه – مطيلًا – في العيب والحرام والأصول، والمسخرة، وحقوق الجيرة، وإساءته للعائلة وتاريخها وماضيها، والولد – صامتًا – يريد لثائرة الأب أن تهدأ، ولذلك المد العصبي أن ينحسر ثم يقنعه بأنه تاب وأناب مستأنفًا نشاطاته على نحو أكثر أمانًا.

ولكن الأستاذ شحاتة – مباغتًا وفي إحدى محاضراته الدافقة – أبلغه قراره طلب يد شادية له من والدها، مؤكدًا أن ذلك هو العلاج الوحيد للموقف الذي شهد وقائعه بعيني رأسه، رغم أنه يدرك الفارق العائلي والثقافي، ولكن الأسطى فتحي – في نظره – جار عزيز ورجل محترم، كما أن الدنيا تغيرت وصار الحرفيون طليعة اجتماعية معتبرة في البلد.

ودهش علي – قليلًا – أمام ذلك الاعتراف الاستثنائي النادر، الذي باح فيه شحاتة الششتاوي بأن شيئًا تغير في مصر، ولكن شعورًا بالسعادة والارتياح داخل الولد لقرار الأب.

لم يك علي يحب شادية – في البدء – ورأى رفقتها هامشًا على متن علاقاته ومغامراته المشتركة مع بشير جار النبي، إلا أنه – وبمرور الوقت – عشق

البنت، وبهرته صفاتها الطيبة والبسيطة والحنونة، وذلك الانبهار الذي أبدته إزاء جده وقد حكى لها بعضًا من سيرته وحكاية عضوية مجلس الشيوخ والوشاح الأخضر، والإطار المذهب المعلق على الحائط في غرفة الاستقبال.. نقطة تميزه التي لا تغيب عن عقله وروحه هنيهة زمن.

ووضع فتحي السيد يده في يد الأستاذ شحاتة، وتليا فاتحة الكتاب، وأصر الأسطى على تزويج نادية قبل أختها؛ إذ إنها الكبيرة، ومن العيب أن تسبقها أختها، فأنبأها وأمها – بعد أيام – بأنه اختار لنادية أهم وأشطر مساعديه في ورشة شامبليون لتقترن به، وحين لاحت بادرة رأي في عيني البنت، حدج فتحي زوجته بنظرة راعدة، فانطلقت تعزف مقطوعة درجت – طويلًا – في التدرب عليها، متغنية بأن الرأي رأيه، والمشورة مشورته، وأن الأسرة – جميعًا – تعيش في عزه وظله وحمايته، ثم أردفت – في نهاية نمرتها كقائد نشيط لفرقة إنشاد ديني – داعية له بالستر، والصحة، والعافية، وطول العمر.

وهـرعت نادية إلى بشير مستصرخته أن ينقذها، ويتزوجها جريًا على سابقة صديقه حفيد الششتاوي مع شادية، فراوغها مرة تلو أخرى، ثم قرر – متململًا زهوقًا – أن يتخلص من إلحاحها بالصعق العاطفي مثلما تفعل أجهزة قتل الحشرات الطائرة، فصدمها بعدم رغبته الارتباط في اللحظة الراهنة، مثرثرًا – في برود حرص على تحميله إحساسًا خارقًا بالجفاف – بأن الزواج يقتل الحب، وبأنه معجب إلى درجة الافتنان بنمط العلاقات العاطفية في أوروبا وأمريكا.

وخرجت نادية من مأساة المصارحة، وحيدة إلى نفسها، شاعرة بأن قوسًا واحدًا اسمه بشير جار النبي أطلق عليها ملايين السهام، فأصابها في سويداء قلبها الذي أدمى متخثرًا.

سقطت البنت البلدية البسيطة الحالمة بالحب، والعاشقة للعشق، في زمن صار مضرجًا بالسقوط.

خسرت الانتخابات في دائرة بشير الذي أسس حزبًا للتآمر العاطفي، صاغ إطاره الفكري بنفسه، وعزم على الفوز بكل الدوائر النسائية في تصويت ليس – بالضرورة – نزيهًا.

ظهرت نتيجة الامتحان، ونجح ذلك التلميذ المتفوق في مدرسة الخيانة التي التحقها مستوفيًا شروط التقديم، مع الإعفاء من المصروفات كونه ابنا لأحد قدماء الخريجين.

ولم يبق لها سوى كاميليا.. حائط مبكاها الأخير، فهرولت إليها – شاكية باكية – طالبة العون والغوث.

.....

أنصتت كاميليا إلى ابنة أختها التي ارتج جسمها تحت وطأة نشيج حارق، وهي تقص عليها ما كان من أمر فتاها.. مستترة في غرفتها – بعيدًا – عن عيني أبيها، أو رصد وداد – جهاز مخابراته الأمين – وتنصتها.

ربتت الخالة الصغيرة ظهر البنت، وأنبأتها بأنها ستقابل بشيرًا وتتحدث إليه.

وفي حلول أول يوم جمعة، قصدت كاميليا منزل الست فردوس، متنسمة أخبار الشمردل، راغبة عزاءه ومواساته، وباحثة عن بشير طالبة

مفاتحته ومساءلته، وأخبرتها الست فردوس بأن الشمردل انقطع عن وائل منذ خضوعه للتحقيق في حكاية سمير ثم وفاة والدته، وأن بشير جاءها بالأخبار المفزعة اليقين عن إدمان الولد سمير المنحرف للمخدرات، ولكنها استدركت وطفقت داعية له بالرحمة، ثم استدركت مرة أخرى حامدة المولى شاكرته على نجاة ولدها من تأثير رفقة السوء.

وأثناء جلسة كاميليا في غرفة استقبال منزل المعلم راغب السيوفي، مر بشير أمام الباب المفتوح قاصدًا غرفة وائل، فنادته الست فردوس ليسلم عليها، وهمست ابنة مبروك إليه – على نحو خاطف – بأنها تود لقاءه في التاسعة أمام البيت بعد فروغه من الاستذكار مع وائل، فهز رأسه موافقًا بسرعة، متهللًا وممنيًا نفسه بمراكمة دليل ثبوت آخر، على هلاك الشمردل.

.....

وفي الموعد المضروب كان لقاء الممرضة الشابة، والطالب المرموق المتنفذ الذي رفع أحلام ابنة شقيقتها إلى عنان السماء، ثم تركها تهوي إلى سابع أرض.

وتحدثت إليه – بجدية – محاولة طرح الموضوع في جمل قصيرة، لا تحتمل مجادلة أو مراوغات، ولكن بشير – بمقدرة على الاختراق الجريء معتادة – باغتها بأن قلبه تقافز فرحًا حين أخبرته رغبتها لقاءه، وأنه انتظر تلك اللحظة من زمن طويل، فغشيها الارتباك أمام طرقاته المتوالية على بابها، والتي لم تمنحها نصف فرصة للتفكير.

واصل الطاغية الشاب هجومه العاطفي – الذي حرص أن يكون حالمًا بما لا يقاس ومتظاهرًا بالنضج على نحو غير مسبوق ينفي صورة الخفة المعروفة

عنه خالطة بسيل من الأكاذيب – صاغها ببراعة شيطان يرد بإلحاد بظلم – عن الشمردل وسمير الفتيين الريفيين المجرمين، الجائعين إلى كل مُحرم ممنوع، والمتقلبين في مراغات الوساخة بإمعان، والقادمين من عشوائيات القرى، وبيوت حقيرة يخون قاطنوها القيم والأخلاق والوطن آلاف المرات كل يوم.

في تدفقه المربك ابنة مبروك الطيب، كان بشير يبدو قتَّالًا سفاحًا، وهو يعب دماء الولد الريفي الساخنة، ويرقص نشوانًا فوق الجسد العاري المجروح المنهك، ويدبدب بالقدمين دبيبًا يرقص قلبه من وقعه، ويبرد نار كراهية وشعور خانق بالنقصان.

طغى.. فكان طغيانه موجًا يصطدم بصخر شاطئ كاميليا في عنفوان ينثر رذاذه في أعلى سماء، ويشيع هواء بحره العفن في كل الأجواء.

في اللحظة.. كانت كالزهرة التي تحمل اسمها، تميل إلى الظل الرطب الرائع وحياة أولاد الناس، وترتشف شعاعات النور الباهر من دون أن تلهب منها الأوراق، أو تلمسها – مباشرة – فتحيل نضارتها ذبولًا.. حارقة كل حواف الغادة الناعمة اللينة الغضة.. غادة الكاميليا.

نسيت ابنة شقيقتها وداد، ودموع الفرقة واللوعة، وشكاواها المنهمرة كالسيل، وتململها المنتظر نتاج وساطة خالتها.

غابت صورة الشمردل عن ذهنها، وتحررت من تلك الوشيجة السخيفة التي شدتها إليه، كما تخلع صندلًا من قدميها بعد مشوار مجهد طال بأكثر مما ينبغي.

مائلة – كانت – لتصديق حكايا بشير، عن «بلدينا» وانحرافاته؛ إذ وجدت فيها التبرير المقنع للإقلاع عن الرابطة والاستمرار، وحتى حين استوقفها الولد الريفي على باب قصر العيني، وأخبرها ما كان من أمر بشير وأبيه، رفضت أن تسمع وأشاحت بالوجه بعيدًا.

منصتة – كانت – لوساوس تدوي في أذنيها كطبول الحرب، متراقصة في جوفها كألسنة النيران الحاقدة الغلول، تهمس، تبرطم، ثم تصرخ:

«نادية لا تحتاج لذلك الولد الذي تخلى عنها.. أبوها ساق إليها – التو – عريسًا معتبرًا.. في أيام أو ربما بعد سويعات ستأنس إليه وتحبه فهي ساخنة جاهزة للحب الفوري..

ما عدت بقادرة على الاستسلام لشق سكة النبوية القذر المظلم، أو مواصلة مسح قاذورات المرضى في قصر العيني، والتغيير على جروح، أو فك خياطات..

بخر حب الشمردل الذي توهمته، وانكشفت حقيقته لدى أول اختبار.

كان رهانًا على ولد متفوق أمامه مستقبل، ربما يجيء أو لا يجيء، مرهونًا بالأشكال التي ترسمها التنوة على قاع فنجان قهوة تعودت قراءته، وترجمته، وتفسيره على نحو ما أرغب وأريد، أو أتمنى.

أغرقت نفسي في مشهد حلم العرس الريفي الأسطوري، حين نسج خيوطه في وجداني كعنكبوت دؤوب لحوح، ولم أر غيره طريقًا للأيام المقبلة، ولحياة تأخذني وقائعها بالأحضان،

وتحررني..

من دنس الفقر، ورجز العوز، وإعلانات هزائم – مجبرة – وقعت عليها تباعًا.

وتحررني..

من كل لجوئي الهارب إلى بيت وداد، مستعيرة تجاربها، ومصادقة أصحابها، عائشة حكاياها، مرتعشة من الخوف حين أوان عودة الأسطى من دون تجهيز طبق السلاطة.

وتحررني..

من ذكريات السعي وأبي في مسارح وسط المدينة، ولحم فريال وقد انغرست فيه أطراف أصابع المطرب، وحكايات ميمي ابن الصول، ومبروك الثمل الكاره كل بناته، ومصادقة الأم على كل ما تأتي به الأحداث والنوائب والمصادفات، وأعوامي الخمسة والعشرين ترفع في وجهي نصل عنوسة، ونداء الرغبة في أعماقي يمعن إذلالي آلاف المرات في كل نهار.

الولد الريفي.. الأمل.. الحلم، أفصح عن وجه آخر.. سقط وضاع.. لن أسمح أن أسقط – معه – وأضيع.

وحين تكون سمائي كريمة مرة، أو – حتى – فتفوته مرة لأول مرة، ويمد بشير الرائع يد حب تحمل وثيقة مشروع علاقة ويطلب مني التوقيع.. هل أتردد وأطيح وعدًا بسعادة، وأنا من أُرغم – طول العمر – على توقيع أوراق شقاء؟!

سأوافق..

سأوقع.. أبصم بالعشرة.

ويعيش بشير.. يعيش.. يعيش..

وليسقط كل الفلاحين، وكل بناتك ياوداد».

.....

لم تستغرق تلك الأفكار – في اصطخابها وتدافعها – طويلًا في ذهن كاميليا ووجدانها؛ إذ أحسن الفقر والمعاناة إعدادها للإجابة الفورية على أسئلة اختبار العمر.

ولمعت عيناها بالرغبة في اغتنام اللحظة، والقبض على الفرصة الاستثنائية، كوميض برق صاعق ألقى على الموقف بُردة وحشية صفراوية، فيما تحضرت صاحبته لمعركة حياة أو موت.

بدت كاميليا قطة – بلدية شريرة – خائنة، تسلمت مفتاح الكرار، فقررت من فورها الاقتحام، والعبث، والسرقة، والشبع من بعد جوع.

خططت هجومًا انتحاريًّا تفجر فيه الشمردل ونادية، وتنجو بسلامتها، وتذيع بيانًا يتبنى العملية.

جارية فرت هاربة من كوخ سيدها القديم إلى قصر سيدها الجديد، الذي مسح على شعرها، مبسوطًا، ثم سحبها من يدها الصغيرة الرائعة البضة، إلى حياة أخرى، وسلمها قرارًا بالتعيين في وظيفة امرأة أبي لهب.. حمالة الفلوس والجاه، والقوة والنسب.

.....

حين تناهى إلى أسماع نادية خبر خطبة خالتها إلى بشير، أصابها ما يشبه الصاعقة ذاهلة غير مصدقة، إلى أن انهمرت على رأسها الأخبار، تؤكد ما

جرى، وتروي وقائع أغرب من الخيال عن رفض أبي بشير لذلك النسب الخائب، فضلًا عن فارق سن يبلغ سنوات ثمان بين الولد والبنت، ثم قبوله – بعد لأي – حين استخدم بشير بطاقة لعب مضمونة وأخبر أمه أمل راشد طالبًا مساندتها، فأجابته موافقة – نكاية في محمود بك – ومرددة أن من فقد حبيبه يعرف كيف يكون شعور العابر في ذات التجربة، والمتلظي نيرانها.

وشعر جار النبي الأب، أن بشيرًا سيفر إلى حضن الأم، طليقته فهرع يوافق ويصادق، حارمها لذة نصر في معركة فرعية موقوتة.

واشترط العقيد – كما شحاتة الششتاوي – عدم إتمام الزواج إلا بعد حصول بشير على الشهادة، كما أصر – بعد تحريات استخدم فيها صلاحيات موقعه الرسمي المرعب – ألا يحضر أهل كاميليا – عدا شقيقتها وداد وزوجها– أيًّا من مناسبات ذلك الارتباط، وأدهشه قبول البنت الفوري، وجاهزيتها للتهادي، والخُلع الكامل من تلك الأسرة / العار.

.....

تلاحقت الأحداث، وكلما جد أحدها، تهدل كتفا الشمردل، وتقوس ظهره، وانحنى رأسه.

كانت خطبة كاميليا وبشير بمثابة إعلان نهائي لانقضاء عصر في حياة الشاب الريفي، ووثيقة جديدة تصادق على عبوديته لابن العقيد محمود جار النبي.

ألبسها بشير الشبكة في احتفال عائلي بسيط شهده منزل الأسطى فتحي، وامتنعت نادية عن حضوره متعللة بنزلة معوية ادعتها كاذبة.

ثم خرجت شلة الأولاد: كاميليا وبشير، وشادية وعلي، ووائل إلى سهرة امتدت حتى الصباح في ملهى «كاف دي روا» بالزمالك، والذي كانت نجمته الصاعدة فيفي عبده ذاع صيتها وشاع في البلد باعتبارها الملكة المتوجة الجديدة للرقص الشرقي.

وبعيدًا.. استسلم الشمردل لوحدته حين تقطعت خيوطه تباعًا:

محمد البتانوني.. سمير التميمي.. بدرناس.. وكاميليا، وأكمل الجملة والسياق منقطعًا عن وائل السيوفي، وعلي الششتاوي، ولم يبق في حياته سوى بشير الذي بعد أن ارتوى ظمؤه للتفوق بتجريد الفتى الريفي من عنجهيته، واعتزازه بنفسه وكرامته، لم يعد يرغب في مزيد إيذاء أو تنكيل، أو يشغل باله بتقصي تأثير عبقرية الشمردل على كل محيطيه.

اقتصرت العلاقة على إبلاغه بعض تكليفات دراسية – فحسب – وهو ما أخذ نطاقه في الاتساع باضطراد، فضلًا عن الائتمار عليه كيما ينأى بنفسه بعيدًا، ولا يلتحق مكانًا يتمدد فيه حضور السيد الشاب، وأخيرًا الامتناع عن مجرد التفكير في مماحكة كاميليا أو التحدث إليها، والابتعاد المسرع عن طريقها إن صادفها.

واصل الشمردل إذعانه، ناظرًا إلى تلك الإلزامات الجديدة باعتبارها سفاسف أمور وتحصيلًا لحاصل؛ إذ لا ينبغي البكاء – طويلًا – على أطلالها، بعد السقوط الأكبر يوم شهادة الزور في حق سمير التي لم يسمح له أحد بسكب العبرات ليرثي موقفه، أو يرثي نفسه فيها.

كثيرًا ما سأل ذاته:

هل تستحق إلزامات الإذلال – تلك – قتل إنسان؟ أو أن اغتيال سمير كان حلقة جديدة من تاريخ عائلة مشئومة أو مأزومة، ناصبها رجال السلطة كل ترصد وعداء؟

هل كان الغرض قتل سمير، أو أن قرصة الأذن التي أرادها محمود جار النبي للشابين – إكرامًا لوشاية ابنه أو تحريضه – اتسع نطاقها لتصير قرصة روح.

هل رحل رفيق البؤس جراء الضرب، أو الخوف، أو الحقن العمدي بمخدر زادت جرعته على المطلوب؟

أكان كل ذلك، الطغيان والافتراء تعبيرًا عن حالة، أو كان ثقافة متكررة أخذت شكل العادة؟

كم شابًّا، أو رجلًا، أو إنسانًا مثل سمير قضى في أخنان الرعب القاتل؟ وعلى أي نحو جرى تكييف الموت، وتأليف أو إعادة صياغة ملابساته في كل مرة؟

تدفق الشمردل – في تساؤلاته الداخلية، تاركًا لنفسه الحبل على الغارب كيما تبوح وتفصح، وتصخب، وتغضب، وتستريح وتهدأ، فما كان يصيب سوى الحيرة ومزيد الخوف، وعذاب الغضب اليائس، وغياب الجدوى.

لم يدرك سوى المزيد من الانحناء، وإطراق الرأس، والخرس المنصاع لكل أوامر ونواهي بشير.

فهم الولد أن فرصة العمل التي منحه إياها المجتمع الجديد كانت: خادمًا مثقفًا لأحد أبناء السادة.

وبدأ الشمردل يوطن نفسه على واجبات الوظيفة ويمارسها باعتبارها إتاوة سلامة، أو ضريبة حياة.

أهمل في هندامه ونظافته، ولم يعد ذلك الشاب الذي عرفته كلية العلوم، والمدينة الجامعية، ولكنه ظل مستمسكًا بتفوقه العلمي حريصًا على التحصيل والاستذكار؛ ليفي بإلزامات وظيفته إزاء بشير، فيما غاب زهو الأفندية، وعنجهية الريفيين، اللذان صاحبا لمعته التعليمية والبحثية الأولى.

سحقته تلك السهولة التي ألقته بها كاميليا خلف ظهرها، كما تتخلص من النفايات الطبية في قصر العيني.

هز الموقف أي يقين وقر في وجدانه، أو ثقة اعتقدها وآمن بها في آرائه وأحكامه.

عصف الغدر بحلم خَالَهُ الحقيقة عن عرس ذهبي رائع، وجواد مطهم. وسرج موشًى، ومزمار، وأذكار، وبنات يغنين، وغواز يرقصن، ومقاريط تدوي، وأنوار تضيء.

انفطر قلب الولد، وأسلمته وقائع الخيانة وقسوتها، إلى مزيد من إحساس عدمي، يرتضي كل ذلك الانصياع للقوة، ويقبل – شاكرًا محتفلًا – بما يلقيه إليه رموزها ونجومها من فرص حياة وتحقق ووجود، وشهادة تعلن أن الشمردل محمد البتانوني شمردل.. موجود.

أدى الطالب المتفرغ ابن مِعجِبة كل الواجبات الدراسية والعلمية، المطلوبة من الطالب الزائر ابن الضابط، فكأنما بات الشمردل اثنين في واحد.

ولكي تأخذ تلك الرابطة العجب شكلًا أكثر مشروعية، أخبره بشير أن يذهب كل شهر إلى مكتب العقيد محمود ليتسلم مظروفًا فيه ما يعينه على مصروفات الدراسة، بعد انقطاع ما كانت أمه ترسله إليه قبل رحيلها.

ونجح الولدان في السنة الثالثة.. الشمردل بتقدير ممتاز، وبشير بتقدير جيد جدًّا، وهو ما أصابه ابن الضابط لأول مرة في تاريخه الدراسي.

وفي السنة النهائية تقدم الشابان دفعتهما، ولكن ترتيب جار النبي الصغير كان الأول، على حين جاء الشمردل في المركز الثاني، وهو ما أثار استعجاب الأساتذة والطلاب، ووائل السيوفي، وعلي الششتاوي على نحو كاسح، إلا أن الفتى الريفي وحده كان ملمًّا بالأسباب؛ إذ أحجم عن تقديم ورقة بحث في إحدى مواد المنهج، كيما يضمن تفوق ابن الضابط، وتعديه موقع ابن «مِعجِبة» العلمي التقليدي.

قربان قدمه ليفتدي نفسه، بعد أن ألح عليه بشير بطموحه أن يكون (الأول) وحده لا شريك له، وأردف مؤكدًا رغبة أبيه العقيد في الأمر، وأمله بلوغه.

وتعين بشير معيدًا في كلية العلوم، واحتفل أبوه بزفافه إلى كاميليا في عرس أسطوري حضره كل مسئولي الدولة التنفيذيين، والحزبيين، وقادة المعارضة، والفنانون، ولاعبو الكرة، ورئيسا المجلسين التشريعيين، ورجال الأعمال، وقادة الشرطة والمخابرات، وأحياه أغلى المغنين والراقصات وملأت صوره المجلات والصحف السيارة باعتباره زفاف العام.

وابتعث بشير لدراسة الماجستير والدكتوراه في جامعة أكسفورد البريطانية، فاصطحب معه – وعلى نفقة أبيه الخاصة – باحث وكاتب ومفكر

الظل الشمردل البتانوني، الذي وافق – منصاعًا – في مزيد انحناء، بعد أن نما داخله ما يشبه العقيدة، بأنه يعيش من أجل بشير، ويتعلم، ويدرس، ويبحث، ويفكر، ويتنفس من أجل بشير، وبات يرى نفسه في كل إنجاز يحققه جار النبي، وهو أقصى ما يمكن أن تسمح به الظروف.

استأجر بشير غرفة صغيرة للشمردل للمبيت مع الإفطار في بناية قديمة على حواف أكسفورد، على حين أقام وكاميليا في شقة رائعة تطل على جدول صغير لطالما شهد مسابقات فرق التجديف الطلابية الشهيرة.

وتعود ابن «مِعجِبة» متابعة المحاضرات مسجلة على شبكة المعلومات الدولية، أو في تلخيصات يقرأها – بنهم – على الشاشة، أو يندمج في تبادل الأسئلة والأجوبة مع الأساتذة والعلماء عبر ذلك الوسيط العلمي فائق التقنية.

أغرق نفسه في شعور خارق بالاستمتاع العلمي، ونسي أنه يعيش باسم شخص آخر، ولكم شعر بالفخر من تعليقات بعض الأساتذة على شغل جار النبي الذي هو شغله، وذكاء جار النبي الذي هو ذكاؤه، وقدرات جار النبي المذهلة في الربط والاستنباط التي هي قدراته.

وبات بشير حديث الجامعة التي حرص على الحضور في مدرجاتها – فقط – لاستيعاب المفردات، والإلمام العمومي بالموضوعات لكيلا ينكشف أمره، ولكن العبقرية الحقيقية التي تبدت في الأوراق، والبحوث، كانت لفتى آخر قدم من أعماق المنوفية إلى أكسفورد؛ ليستكمل جانبًا آخر في لوحة مأساة إجرامية، أبدعتها مجموعة من فناني القهر ومبدعيه.

ألغى الشمردل نفسه بنفسه، وانحنى أمام إرادة متجبرة لآخرين. واقتصر حضوره الخاطف على تسلم أوراق ومطالب من بشير، أو لتسليم ما تم إنجازه، وهو ما كان مطعم «شجرة الليمون» - بجوار مبنى الجامعة- ساحته الأساسية.

أما كاميليا فقد أنجبت - زمن البعثة - بنتين هما رنا وهنا يفصل بينهما عام، والتحقت بأحد فصول تعليم اللغة الإنجليزية لتنجح - بإصرار لافت- في بلوغ ما أرادت تعلمه، لا بل وإجادته.

واكتشفت في نفسها عشقًا لمتابعة السياسة البريطانية، وأخبار دوائر المال والاقتصاد، والبورصات والبنوك، ونجحت في تحصيل كم وافر من المعلومات - بذكاء فطري حاد - قادها إلى الإمساك بتلابيب كل التطورات في تلك الميادين.

وبعد الماجستير بأربعة أعوام، كانت أطروحة الدكتوراه التي دشنت بشير جار النبي كأحد أهم العلماء المؤسسين لعلم الكيمياء الخضراء، المستهدف تقليل الانبعاثات الناتجة عن عمليات التصنيع الكيميائي إلى أقل درجة ممكنة، وأفصح الدكتور بشير - في عدد من الدراسات والأوراق البحثية والمحاضرات والمقالات - عن ابتكاره موادَّ كيميائية جديدة تعود بالنفع على البيئة، فضلًا عن مواد كيميائية تعمل كبديل عن المواد الأخرى التي يعود تصنيعها بنتائج سلبية على البيئة.

كما كان الاختراع - الذي قلب الأوساط العلمية الدولية رأسًا على عقب- هو التوصل إلى بدائل للمواد الكيميائية المستخلصة من الأنواع الحية المهددة بالانقراض.

امتلأت المواقع الإلكترونية والصحف بإشارات متنوعة إلى عبقرية الدكتور بشير، واكتفى الشمردل بالفخر من الباطن، وأحيانًا كان يضبط نفسه وقد تملكته الغيرة، فيزجر شعوره، ويقهره، ويعيد تهذيب نفسه، مكررًا على ذاته بأن دوره في الحياة هو الظل، وأنه – أبدًا – لن يبيت الأصل.

وتسابقت الجامعات الدولية على التعاقد مع الدكتور بشير للمشاركة في بحوثها ومشروعاتها، وأقحمت كاميليا نفسها على ذلك الخط، متفاوضة، باحثة عن مواضع استثمار وضعية زوجها، التي باتت تعرف كل الخبايا والأسرار حولها، بما فيها دور الشمردل.

وتشعبت شبكة اتصالات كاميليا بالجامعات والشركات الأوروبية، وأحيانًا ببعض المسئولين الحكوميين، وصارت المتحدثة الرسمية باسم زوجها، وصاحبة الكلمة في إدارة أعماله.

.....

سنون طويلة فصلت بين تلك الأيام الخوالي والشمردل، يوم جنازة الدكتور بشير جار النبي.

تعقدت مشاعر، واكتظت استحالات، وتعلم الشمردل شرب الخمر، وصار بار الفجالة هو محله المختار، ينظر فيه إلى العالم من خلف سائل الكونياك الذهبي، ويلاعب حبات الترمس بأطراف أنامله، ويحدث نفسه متمتمًا حينًا، ومبرطمًا حينًا، وصارخًا أحيانًا.

حاول أن يكتشف في نفسه أي تغير يوم رحيل قاتله، أراد أن يتحسس اختلافًا، أو يعيد تقديم نفسه إلى نفسه، على نحو آخر، أو يستجمع بعض هشيم الولد المنوفي الذي كان، أو يعيد إثبات عبقريته ونبوغه منسوبين إلى اسمه الذي أوشك أن ينساه.

حين وصل البار، وترجل من سيارة أجرة، أمعن النظر إلى نفسه على صفحة مرآة عند المدخل، متمعنًا في كتفيه، متفحصًا دماغه..

هل يمكن لعود الرمان أن ينتصب من جديد؟

هل يتمرد الكتفان على تهدلهما، أو يرفض الرأس أوامر الانحناء، أو يستعدل الظهر استقامته؟

هل يفلح – بعد زمان موغل في القسوة – أن يكون (هو)، بصوته (هو)، ووجهه (هو)، وأفكاره، وخطراته، ودمه، ودموعه (هو)؟!

لا يعرف لماذا اليوم – بالذات – لم يفارقه طيف بدرناس، لا ترنو أو تهيم بابنها – كما تعودت – وإنما تحدجه بأسف غاضب، وترمقه بمرارة، لم يتحمل وخزها أو لسعها.

هل يذهب إلى كلية العلوم غدًا ليستأنف حياته الطبيعية من حيث توقفت؟

هل يقف أمام مقر مجلس الوزراء منتظرًا موكب الدكتور عبد العزيز شوقي صائحًا: «يا معالي رئيس الحكومة.. أحسن عقاب لك ألا أخبرك حقيقة بشير جار النبي.. جاتك ستين نيلة»؟

هل يقابل شقيق سمير ويعترف ويتطهر ويواجه نفسه بجسارة؟

هل يذهب إلى محمود جار النبي – الذي صار لواء بالمعاش وصاحب واحدة من أكبر شركات الأمن – ويبلغه بأنه سيفضحه ويسلب ابنه ذكرى المجد، ويحكي عن جريمة قتل سمير عند الفجر.. ويصرخ بأنه لا يخشى أن يلقى مصير صاحبه، ويفارق تلك الدنيا المعفونة الظالمة التي لا تمنح أي بسيط قيراطًا من العدالة؟

هل يقف على عتبات قصر كاميليا معلنها لحظة حساب أزفت؟

لم يحب سواها.. ولم يبغض إلاها.. وعاش حياته – على امتداد سنينها – لا يكلم امرأة، أو يقترب من بنت أخرى، أو يتجاوب مع شهوة، أو ينخرط في نزوة.

كانت كاميليا دائرة تحجرت عندها عواطفه، وجمد شعوره، وسقط الحب صريعًا في مركزها.

.....

«واحد دوبل مثل العادة.. وطبق من حبات الترمس يا أستاذ شمردل».

obeikandl.com

obeikandl.com

4

كانت ليلة صيف اكتظت بالخيالات، واصطخبت بالضجيج والسعادة، والمجون، والجنون، واختراق المألوف، والتقليدي، والعادي، والممكن.

حفل لاستعراض نفوذ صاحبته، احتشد في ساحته وأركانه أفراد شبكة علاقات ومصالح وقوة وتآمر شديدة الاتساع والتشابك.. ووسطهم كانت تتهادى رافعة كأسها في نخب ضيف، ومطيرة قبلة في الهواء لآخر، وسامحة لأحدهم بإحاطة خصرها، ما نحته الضوء الأخضر للهبوط العمدي غير الاضطراري إلى ما تحت الخاصرة، زاعقة في نداء جهير، أو مطلقة ضحكة صارخة، سابّته بما يحب ويشتهي، ومشجعة كل البنات الحاضرات على النهوض بمهامهن على نحو يعلي من حضور معنى الشغل على الأصول، بغمزة هنا، وإيماءة هناك، أو بتوجيه مباشر بين هذه الهُنا، وتلك الهُناك.

نادلو أحد المطاعم اللبنانية الفاخرة يقومون بالتخديم على الضيوف حاملين أطباق المشهيات الشرقية الشهيرة يتقدمها «إمام بيالدي» الذي لم تنس فريال مبروك أن تشرح أصله وفصله لضيوفها، مشيرة إلى أحد طهاة الخاصة الملكية المصرية الذي أدخله إلى مطبخ عائلتها في لوكسمبورج،

obeikandl.com

وأنه مرتبط بأسطورة حاكم إمام الذي انهبر بصنف من الباذنجان الأسود الصغير المشقوق، المحشو باللحم والصنوبر والجبن، فالتهم وحداته – نـهِمًا مفجوعًا– باذنجانة تلو أخرى، حتى أغشي عليه، موضحة أن الإغماء هو معنى الكلمة التركية «بيالدي»، وعادة ما كانت تضيف – بثقة من درج على رواية الكذبة وإعادتها وتنقيحها عشرات المرات – أن ضيوف جدها في أوروبا كانوا يستميتون لمعرفة طريقة طهو «إمام بيالدي»، ولكن جدتها «البرنسيس» أصرت على تكتم سر الصنعة، والاحتفاظ للعائلة بالميزة التنافسية المرتبطة بطبق لا يطهوه سواها، وأنها أعدته بنفسها – اليوم – ليقدمه النادلون، ولكن دون إفشاء سره كذلك.

وكثيرًا ما كانت تعقب محاضرة الزيف، بالتقاط حبة من الباذنجان بأطراف الأنامل لتضعها في فم مفتوح لأحد ضيوفها، لاثمته – بعد ذلك على نحو خاطف – يضاعف سعادته وهياجه، ومتعته بالليلة الاستثنائية.

وكلما أقبل الليل وأوغل، تشتد وقائع الحفل إثارة، فالحمالات تنسدل – في إهمال أو بقصد عمدي – من على الأكتاف، والأثواب تنحسر عن السيقان والأفخاذ في جلسات لم تعد تتوخى – تحت وطأة انفلات السُّكْر – أيًّا من مقتضيات الاحتشام بدرجة أو أخرى، والأيادي والأذرع تداخلت؛ لتقود أصحابها إلى مواقع كانت حصينة أو مدعية للحصانة، ثم استسلمت بسعادة وابتذال رافعة الرايات البيض، ومطلقة بشارات رفع السيقان البيض كذلك.

والنسوان يسحبن أنفاس الحشيش – باحترافية – من النراجيل الشامية القصيرة، وينفثن الدخان في وجوه الرجال مقتربات، ملامسات ما وسعهن الاقتراب واللمس.

الضيوف – أجمعون – خلعوا السترات، وفك بعضهم روابط العنق، والبنات تملصن من الصنادل والأحذية، وقمن مندفعات إلى الرقص، مرافقات أنغام فرقة شرقية لبنانية، وشدو مطرب خلط – على نحو غير متجانس – بين مقاطع غنائية شهيرة، مطيحًا ومسقطًا أية شبهات احترام ترتبط ببعضها أو ذكراه، ومبجلًا – بكل خلجة في نفسه – كل ما اتسم بالتهتك والابتذال.

«جفنه علم الغزل.. ومن العلم ما قتل.. وباحب الناس الرايقة اللي بتضحك على طول.. الهوى أنت كله والخيال.. بين ماض من الزمان وآت.. واركب الحنطور واتنحطر.. أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر».. إلى أن وصل المطرب إلى ذروة سنام تكوينه العشوائي الغنائي، صادحًا بعلو الصوت: «آه ياني ياني ياني.. م الحجر الأولاني» فضج الحاضرون في جنون صارخ، واندمجت البنات في رقصهن الراعش البهج المتوتر النشوان، على حين وضع أحد الضيوف كأسًا على رأس صلعاء، ومضى – متهاديًا متبخترًا – محاولًا الحفاظ على توازنه برعب دفعت الثمالة إلى المبالغة في الإحساس به.

وجاءت لحظة صمتت فيها الفرقة والمطرب، والتفت الراقصون، والجالسون إلى بنت مبروك الطيب التي خاطبت ضيوفها معلنتهم أن ظروف عملها اقتضت عودتها إلى القاهرة، مودعتهم، وواعدتهم بألا يطول غيابها، مطالبتهم بزيارتها في مصر.

وصفق الجميع، وأطلقت النسوة صرخات استحسان، فيما زغردت إحداهن، من دون أن يعرف أيهم ما هو نوع العمل الذي تشتغله فريال واضطرها إلى العودة، أو عَلِموا ولكنهم لم يعلقوا أو يُبلغوا.

وفتح رجل چامايكي ضخم الجثة زجاجة شمبانيا عملاقة، وأدار فوهتها في كل ناحية، مغرقًا كل الوجوه، والصدور، والسيقان برغوتها البيضاء الفاتنة.

.....

صاغت السنوات التي قضتها فريال في لندن شخصيتها، وطريقة تفكيرها على نحو جديد، قائدتها إلى منعطفات لم تدر بخلدها قبلًا، مسلمتها إلى عتبة عودة إلى مصر كانت تلك الحفلة الوداعية تدشينًا رائعًا لها.

رافقت چامايكيًّا من بريكستون، صاحب علاقات كثيفة ومتنوعة بأوساط العرب التي اندمج زوجها السابق عبد الرحمن آل عنبري في روابطها وتجمعاتها.

وأظهر ذلك الچامايكي – منذ اللحظة الأولى – قدرات فائقة على تقديم الخدمات لرجال الأعمال، والديبلوماسيين، والصحفيين، ورجال المخابرات من كل صنف – والذين هندس كل منهم ساترًا بصفة وشخصية ونشاط يغاير ما استبطنه في عمق أغواره – وتنوعت تلك الخدمات، بداية من رعاية الشقق والقصور أثناء غياب أصحابها، أو تأجير سيارات فاخرة، وانتهاءً بالقوادة، والدفع إليهم بأسراب من بنات أوروبا الشرقية، لإضفاء أجواء من البهجة على جلسات السمر، والشراب، والقمار، وبخاصة مع إجادة بعض المقودات لمهارات مطلوبة في هكذا أوساط، من التحدث بالعربية، إلى الرقص الشرقي، إلى القبول بمطالب فراش غير تقليدية.

لمحته فريال ذات سهرة حاشدة في شقة «بيزووتر» زمن رابطتها وعبد الرحمن وبهرها بنيانه القوي، وسمعته كبطل مصارعة سابق من وزن ثقيل،

وبلادة ملامحه التي تشي بأنه لا يفهم شيئًا إلا القيام بواجباته العضوية.

ونجحت في أن تهمس إليه مغافلة سائق زوجها الحبشي، ثم راحت -بطرق بالغة الالتواء والتعقيد - تواعده وتعاود خنًّا سكنه في «بريكستون» حيث يأتلف الجاميكيّون ويتركزون.

أحست معه - في ذلك المكان - أنها رجعت إلى شق سكة النبوية، متقلبة في أحضان ميمي ابن الصول.

عشقت قوته، وصدره وذراعيه المكتظين بالعضلات، ولم تهتم - كثيرًا - بالكلام أو التراسل معه؛ إذ كان ثورًا طلوقًا، ليس له إلا وظيفة واحدة.

وحين وقع طلاق فريال من عبد الرحمن آل عنبري، وتحصلت شقة لندن ضمن رشوة تتوسل إليها السكوت على أمره وسائقه الحبشي، جاءت إلى لندن مرتدية جلبابًا، لابسة حجابًا، معتزلة الناس، مصدومة لفترة لم تطل، خلعت بعدها ما أسبلت على رأسها وجسمها، وعادت سيرتها الأولى، مهاتفة الچامايكي، داعيته إلى متعة صارخة اللهيب، وأيام في الحرام.

ووصلت فريال ما انقطع من جلسات، وعلاقات، وسهرات، كان الچامايكي منظمها، والداعي إليها، ملتزمًا حدوده أمام الناس - وفقًا لما عودته - مناديها: (الشيخة) كما كانت تتسمى أيام زيجتها وعبد الرحمن.

ولكن حدوده تلك اتسعت في مرونة، حتى باتت مراغة فضفاضة تقلبت فيها فريال إلى آخر الآماد.

صار يدفعها - أحيانًا - إلى الجلوس جوار ضيف بعينه، أو يستلفتها إلى بادرة أو إشارة وردت من أحدهم، أو يلهب نهمها إلى المال بالإشارة إلى مكسب يمكن تحصُّلُه من مشاركة صديق في عمل أو نشاط.

وتنوعت أشكال تلك النشاطات، وامتدت ما بين البورصة والمعلومات، واكتشفت فريال لذة ذلك النوع من الأعمال الغامضة، وعوالمها المليئة بالمؤامرات، والفساد، والمغامرة، وانغمست فيها حتى الشواشي، منزلقة إلى ما هو أكثر، بتسهيلٍ عنوانُهُ الغواية، وبتحريض الچامايكي الذي أكثر من حديثه إليها عن الجنس بوصفه واحدة من العملات الأكثر رواجًا وتداولًا في دوائر المال، والتخابر، والسياسة، وبالذات عند الشخصيات العربية أو الشرقية.

ثم راح الچامايكي يدفع رفيقته – لاكزًا على نحو مباشر – إلى علاقات فراش خاصة مع أولئك المولعين بالعربيات لا المستعربات، والذين أبدوا اشتهاءً، واشتياقًا إلى جمالها الصارخ الفتان القَتَّال، المحتشد بكل محفزات الاستثمار العضوية.

.....

عبر سنوات هندست فريال جماعة مصالح رائعة، وانخرطت في مروحة واسعة من الأعمال، مكنتها من تعظيم رأسمالها، والإنفاق بسخاء على ضيوفها وحفلاتها، وثورها الطلوق، وحسن إعداده لمهام كل ليلة.

وكانت العراقية وسيلة الكاظمي، من أكثر المداومات على الحضور إلى شقة «بيزووتر»، والمندمجات مع ابنة مبروك في صلة توطدت مع الأيام، وزاد من وثوقها حجم وطبيعة الأعمال والشراكة التي نمت بين المرأتين وكأن النيل عانق – فيهما – الفرات.

.....

وسيلة الكاظمي.

امرأة وضعت وطنًا بأكمله في حقيبتها وسافرت، بعدما شنقت شعبًا على رموشها المنتصبة كحراب من فولاذ.

قطة تترية تسحبك عيناها الزرقاوان إلى أعماق بئر افتتان ساحر، فيما يبدو شعرها الأسود الفاخر المنسدل على كتفيها، وكأنه هالة من الفخامة الأسطورية، تحوط وجهها ذا البشرة الوردية، وتؤكد ملامحه الناعمة والغامضة.

جنين فكرة عبقرية نزقة شريرة، تعسر ميلاده، محبطًا مشارط أعدت – بليل – لقيصرية، لابدًا، ملتجئًا، معتصمًا رحم نصوص مضفورة بالقسوة، والرغبة، والضعف، والجوع، والجبروت.

عود ينزف بالنغمات، ينعي أسطورة مجد مات.

قصر خرب، مضروب بصواريخ «كروز»، مسكون بفوضى مشاعر، وأحاسيس، وأفكار، وانتماءات.

جرح بغدادي لا يبرأ، وامرأة ماجدة تنتسب إلى آل البيت، تعدو عارية في شوارع حواضر أوروبا والشرق الأوسط، فيما يضع الناس الراحات على الأعين خجلًا وكسوفًا، وعبورًا فوق فضيحة، يتبرأ منها كل من شارك في إخراج مشاهدها.

أمسكت بتلابيب عبارة الوطن، وضعت أصبعها في عين الواو لتفقدها بكارتها، ثم اغتسلت بماء خيانة، وجففت الراحتين بمناشف الإنكار.

تيار من الكهرباء سرى صاعقًا كل من حاول اعتراض سكة صاحبته المرتقية أجساد فلاحي البصرة، وشعراء الكوفة، وچنرالات الكرخ، وأنقاض نظام سقط، وعز ضاع.

ابتغت أن تبيت مواطنة كونية.. عالمية، ونسيت عشائر الرافدين، وتمثال مرجانة، ونصب الحرية، والجامعة المستنصرية، وجسور بغداد.

.....

كانت أنشط شباب الجامعة في العمل الحزبي والسياسي، تصعدت – على نحو سريع – تَغَيظ منه رفاقها، وجندتها المخابرات – عبر استغلال حماسها وطموحها – لتصير أهم عناصر جهاز خاص للتعامل مع الأجانب واستجلاب المعلومات.

دخلت في عديد علاقات وصلات، وكانت نجمة عشرات من غرف النوم، وألقت بشباك الشهوة حول جمهرة من الملحقين، والإعلاميين وديبلوماسيين بينهم عبد الرحمن آل عنبري وقت عمله في العراق.

وعمد رؤساؤها إلى تزويجها من أحد رجالهم مهندسين ساترًا مناسبًا حول عملها في مجال استيراد مواد كيمائية، وأرسلوهما إلى أوروبا ليلتحما بخلايا منظمة جعلت من الجمعيات والاتحادات العربية النوعية قاعدة حركتها الأساسية، وكان بيت فريال والعنبري – بتجمعاته الخطيرة والنافذة– أحد الميادين المفضلة لعملها.

طموح المرأة الكاظمية وأنانيتها دفعاها لئلا ترتكب حماقة اقتصار ارتباطها على نظام تحوطه الاحتمالات في بلدها، وينتظر صواريخ تأتيه من البحر، وغارات للشبح تعربد في السموات، ودبابات تدير محركاتها – بصخب – استعدادًا للتقدم على كل المفارز والأنساق.

ظلت خائفة من مفاتحة الزوج بهواجسها، أو نواياها، أو رغباتها، وظل مترددًا في الاعتراف إليها بأفكاره المماثلة؛ إذ عودتهما أصول النشأة في بغداد،

وإلزامات العمل الأمني ألا يأمن أحدهما للآخر، حتى حين يقاسمه اللقمة والفرش.

وجاءت لحظة أطاحا فيها الخوف، بدافع من الخوف ذاته، وتكاشفا معلنين ضرورة ارتباطهما ببدائل أخرى، فإن بقي صدام تقدما جموع الهاتفين له، وإن سقط كانا مع طلائع الثائرين عليه.

وبحرص بالغ، وتأن وتؤده، بدأت وسيلة وزوجها ينسجان علاقات ولاء مزدوج مع دوائر وإدارات، وأفراد، وأجهزة ينتشرون في كل مكان حولهما، وصاغا – على نحو السرعة – أواصر رابطة مع رموز المعارضة العراقية المقيمين في بريطانيا، كما باتت شقة الزوجين العراقيين في «سلون سكوير» مقرًّا دائمًا لاجتماعات نشطة يتم فيها تبادل معلومات حول التسليح والنشاط الاقتصادي والأسرار العلمية والإتجار فيها من أي بائع، إلى أي زبون.. والمهم هو الدفع، واستخدما كل ما لديهما عن المواد الكيميائية التي كانا يستوردانها لصالح بناء ترسانة عراقية للدمار الشامل، باعتبار تلك المعلومات سلعة شهدت طلبًا مجنونًا في أسواق الجاسوسية.

ولما سقط تمثال صدام، ودخل المارينز ساحات الرشيد، عادت وسيلة وزوجها إلى العراق مع العائدين، وصارت نجمة قناة «الجزيرة» الأولى، وكل وسائط إعلام الغرب، متحدثة عن فجر الحرية الذي أشرق على الرافدين، مبشرة بعراق جديد.

ولكن ثقافة اجتثاث البعث، أطاحت فرص وسيلة في الوصل مع العراق المحدث، فولت الأدبار – وزوجها – إلى لندن من جديد، متنقلة بين العاصمة البريطانية والقاهرة، مروجة نفسها كرمز لعراق قومي سقط، وسادت فيه

العشوائية والفوضى والإرهاب.. محاولة صوغ بدائل تمويل إضافية تمنحها فرص الاستمرار، والعيش على سطح الدنيا.

بدأت بالإتجار في الأعمال التشكيلية العراقية، التي أفلحت في تهريب عشرات منها وقت سنوات الأزمة.

وصارت هي البوابة المضمونة لسماسرة الفن، وقاعات العرض وصولًا إلى إحدى روائع ضياء العزاوي، أو نجاح العطار، أو جواد سليم، أو قيان سواره، وشرائها وطرحها في بورصات الرسم.. كأميرات عربيات سباهن غزاة، وعرضوهن عراة في سوق رقيق.

ثم أسست وسيلة ورشة ووكالة صغيرين في «كوڤنت جاردن» لتصميم وتسويق أنسجة وجلالبيب تراثية عليها بعض من نسخ رسوم الواسطي المرافقة نصوص مقامات الحريري، بتشكيلات من الخط العربي، ونجحت – بذكائها الحاد – أن تثير فضول الأجانب وإعجابهم بتلك الصرعة، حين شرحت النصوص المعقدة المطبوعة على النسيج، بطريق يمزج ثقافة الأجانب عن طقس ألف ليلة وليلة وسحر الشرق وبهائه بتسويق سلعة عصرية ولمسة أناقة متميزة ليس لها شبيه. وبات مألوفًا أن يحفظ زبائنها ما ترددده عن عبارات مثل: «ظعمت إلى دمياط عام هياط ومياط»، أو «أزمعت التبريز من تبريز».

راجت أعمال وسيلة وزوجها، ولكنها لم تعوضهما دخل توكيل استيراد المواد الكيميائية أو الإتجار في معلوماته، فبدأت المرأة القوية الشرهة في اقتحام دوائر البورصة، التي أصاب فيها الثنائي العراقي أرباحًا طائلة.

وتعرفت – في خضم ذلك النشاط – كاميليا زوجة الدكتور بشير جار النبي، ذائع الصيت في الآفاق، وكانت المصرية مازالت تتحسس الخطى

في ذلك النشاط، فعمدت وسيلة إلى تدعيم علاقتها بها، ومساعدتها على الحركة في ساحة أسواق المال، متنسمة في كاميليا وزوجها النجم الساطع فرصة لتدعيم حظوظها في مصر حيث يسهل إصابة ثروة عبر التسلل إلى دوائر النفوذ والسلطة، والتي تجهزت – بعد سنين – لاستقبال الدكتور بشير جار النبي بالأحضان، معلنة قرب منحه قلادة النيل العظمى اعترافًا بما قدمه لبلده – في مجال العلوم والمعارف – من سمعة دولية ممتازة، ومكانة سامية رفيعة.

ولم تك وسيلة تعلم أنها بذلك الاقتراب الذي هندسته الصدفة مع كاميليا، ستكون جسر وصل جديد بينها وشقيقتها فريال، بعد ما طال البعد، الذي هو جفوة لم تسمح إلزامات التشدد فيها ببحث إحداهما عن الأخرى، أو الاتصال بها.

وترددت كاميليا وزوجها – طوال سنوات الدراسة، وعشر بعدها في خدمة منظومة الصناعات الكيميائية البريطانية – على شقة فريال في لندن، ونسجا صلات مع العديد من الشخصيات التي ازدحم بها ذلك المحفل المشهود، وعلى رأسهم بعض ممثلي شركات عملاقة متعددة الجنسيات، وجامعات دولية، ووكـلاء علميين وتجاريين بريطانيين وإسرائيليين وأمريكان، فضلًا عن بعض الشخصيات العربية والمصرية المرموقة بينهم الدكتور عبد العزيز شوقي المستشار الثقافي الذي بات رئيسًا للوزراء فور عودته إلى مصر، وكان من أول أعماله ترشيح اسم الدكتور بشير لمؤسسة الرئاسة من أجل نيله الوسام الأكبر، لا بل ودعم فكرة منحه حقيبة البحث العلمي في تشكيلته الوزارية الأولى، وهو ما لم تسمح ظروف ارتباطات بشير الدولية بقبوله.

وأضافت كاميليا إلى مكتسباتها الاجتماعية في تلك الجلسات، علاقة مع الإعلامي كريم خفاجي المذيع في هيئة الإذاعة البريطانية، والدكتور فؤاد جريس وأخته الدكتورة نازك الطبيبين بمستشفى «هارتفيلد» والناشطين في مجال حقوق الإنسان.

إلا أن وسيلة الكاظمي ظلت أهم مكاسب كاميليا البريطانية؛ كونها مكنتها من إجادة مهارات النشاط في سوق الأوراق المالية، وعبرت بها إلى أفق علاقة مع رموزها ونجومها، فضلًا عن مجموعة من الإسرائيليين – الأمريكيين اهتموا – كثيرًا – بأمر زوجها، وعرفوا أن كاميليا هي المتفاوضة باسمه في أمور التعاقد والارتباط وبخاصة مع ادعائه الانشغال والانغماس الكامل في أمور البحث العلمي ودراساته.

وتضفرت علاقة وسيلة بكل من الأختين فريال وكاميليا – كل على نحو مختلف – فالأولى شريكة في تجارة المعلومات، وفي ثقافة استخدام عملة الجنس وتبادلها طريق معبد إلى تلك المعلومات، والثانية شريكة في مشروعات مستقبلية تفتح ذراعيها للدكتور بشير في مصر، ومنطقة الشرق الأوسط بأسرها.

العلاقتان متلازمتان.

وسيلة وربيبتها فريال تستعدان لضربة كبرى في ساحة بشير جار النبي، ووكلاء الأعمال الأجانب دفعوا ابنة مبروك إلى العودة لمصر، وحفزوا العراقية للحركة النشطة على طريق اسمه كاميليا يفضي إلى دكتور الكيمياء صاحب المنجز العبقري.

.....

لم تجب كاميليا وزوجها دعوة حفل فريال الوداعي؛ لأنهما استَبقَاها إلى القاهرة لحضور حفل منح العالم الكبير قلادة النيل، في حين تواعدت وسيلة الكاظمي، وكريم خفاجي، والأخوان جريس على لقاء حرم الدكتور بشير في مصر.

.....

وحين آب الشمردل إلى القاهرة تابعًا سيده – بعد سنوات طوال واصل فيها الانحناء حتى تعوده وأمعن فيه مندمجًا بنمكية – بدا وكأنه موشك على إطلاق مرحلة جديدة من مأساته المروعة، مسرحها مصر.. البلد الأم الذي لم يتغير فيه سوى الشكل.. الملابس.. طرز السيارات وكلام غص به الفضاء عن الديمقراطية، والمجتمع المدني، وحقوق الإنسان.

واعتاد الرجل الريفي محني الظهر حين يصطدم بخطاب يحمل شيئًا من تلك العناوين، أن يخرج لسانه – في مرارة ساخرة – متمتمًا: «اسم الله ياخويا انت وهو.. ابقوا قابلوني»!

عاش الرجل – زمانًا – يسهم في تصنيع الكذبة، وفي هندسة الوهم من هواه حينًا، ومن ظنونه حينًا، ومن إلزامات الطاعة وتعليمات القهر أحيانًا.

استسلم للخوف، رادعه حين يتململ أو يتفكر فيما يتصوره حقوقًا ضاعت، أو في المجد الذي صار هو – بالذات – من يرفع إكليله فوق رأس بشير بعد أن أقصاه ابن الضابط من فوق عرش العبقرية، وجلس مكانه مؤسسًا مملكة الادعاء.

لطالما أمعن الشمردل النظر إلى صورته في المرآة.. متأملًا وجهًا لرجل بلا ملامح، تعرض لحادث سرقة بالإكراه.. عيناه.. شفتاه.. أنفه.. شاربه.. حاجباه.. كلها بارحت ذلك الوجه الذي صار كثقب أجوف.

وجه خال من قسمات، وصدر يحوي قلبًا مات.

لا أحد يعرف الشمردل، لأنه لم يعد يعرف نفسه.

وتعود ابن «مِعجِبة» – حين تنهكه الأحزان – أن يعود بارًا بالفجالة يشبه حانة في أكسفورد حيث تعلم الشراب متعرفًا طريقًا لغياب ينسيه المحنة ، وألف انتباذ ركن قصي، خافت الضوء، ينخرط فيه محدثًا ذاته، مؤتنسًا بها، أو ممسكًا بتلابيبها في لدد وملامة، أو متخيلًا تحرره الوهمي من الخوف، ثم متسائلًا – في يأس – عن جدوى البقاء على قيد ذلك الوجود المفرط في وحشيته.

تقوده قدماه إلى المكان نفسه، والحالة ذاتها، عندما يأتي المساء فيسلمه نفسه موقعًا بالحضور.

«البقاء كالرحيل.. والرحيل كالبقاء»، كان يردد – مكلومًا – مستعرضًا دنياه التي ما عادت سنبلة ملأى بالقمح ضاحكة له.. بل عابسة تتفحصه – حزينة – وتعرض عنه – مشيحة – فيما تتبسم – مشرقة – لطفل فلاح يحمل كتبه في كيس قماش، ويمضي للمدرسة، مرفوع الرأس، مفرود الظهر كعود الرمان، وتراه بدءًا جديدًا للتكوين، وعوضًا عن أمل راح، وغاب.

يكاد دماغه ينفجر – كل ليلة – تحت ضغط اكتظاظه بالأفكار، وبالأسماء، وبالوجوه، والمعاني، قبل أن يأوي لفراش قلق مهموم، توطئة لافتتاح نهار جديد صاخب، ينسى فيه كل أحزان الليل، وثورته وهياجه، ويبدأ يومًا يضع فيه عين بشير، أو أنفه، أو فمه على الوجه الفارغ، ويعيش في صورة رجل آخر.

رجل استعد البلد – كله – للاحتفاء به في ليلة عيد الأعياد، فأدام الله عليه الكذبة، وأدام على مصر الفساد.

وحينما حل الليل كانت قدماه تقودانه إلى الفجالة ثانية؛ ليعاود إنتاج المحنة، ويكرر عرض الليل على خشبة تلك الحانة.

لم يقدر أن يمنع نفسه متابعة تجلي أزمته الأكبر، وطلب من النادل أن يشغل تلفازًا قبع جواره، كيما يشاهد احتفال المجد والتكريم والسعادة، ووقائع تقليد بشير جار النبي تلك القلادة.

ووسط ثرثرة المذيعة، ولغوها السيال في تقديمها الحفل، كان الشمردل يعب كأسًا في أعقاب آخر – بسرعة – وكأنه يستعجل غيابه عن اللحظة.

ولكنه – تلك الليلة بالذات – لم يغب، لم يتمكن من قهر شعوره باليقظة، وراح يحدث نفسه ويعنفها، ويعارك أشباحًا أو أطيافًا مجهولة تتراقص حوله، كان كمن يسقط في بئر، أو بحر، أو حفره، أو في هاوية، أو مستنقع رمل ناعم، ثم يعيد صوغ سقوطه عشرات المرات، تأكيدًا أو تجويدًا، أو تعذيبًا للذات..

«سيداتي.. آنساتي.. سادتي..

أحدثكم من بلد مبكى الأنبياء.. وفي زمن تمزيق الرسالة والاحتفاء بالبغاء.. وأنقل إليكم حفل تنصيب مسيلمة أميرًا جديدًا للمؤمنين.

تعيشون معنا الأكذوبة والزيف.. وتتبادلون النظرات – مع كل المحتفلين عبر الشاشة – والابتسامات.

مصر اليوم – كما ترون – في عيد.. والكل فيها سعيد».

ثم تخلى الرجل الريفي المأزوم عن سخريته المرة، وأشار إلى الشاشة مهتاجًا، مادًّا يده ليمسك وجه بشير..

«أتواجه مع صورة بلد لا أعرفه.. لا أحبه.. لا أبغاه..

بلد مدموغ باللعنة..

بلد بشير وأبيه..

بلد لصوص الخصخصة وأصحاب التوكيلات.. بلد المتنفذين الخصيان وشرف قد مات.. بلد النسوان الخائنات المحظيات.. بلد يترصد أشواق البسطاء للحرية.. بلد الشركات متعددة الجنسيات.. بلد العفن حين تجلى.. بلد سطوع وإشراق المحنة.

بلد الظلم المظلم ورجال الأعمال.. بلد كل ساعاته ودقائقه وثوانيه مواقيت حاضرة لصلاة المال..

بلد البصق على الفقراء، وإهدار القيمة والمعنى، وقتل الأطفال..

بلد اختاره – أصحاب الزمن الجديد – موقعًا للإنزال..

وهبطوا علينا.. وهبطوا بنا.. واختطفوا الأمل رهينة، ودفعوا بالعملاء إلى السيطرة على الأسوار والحصون، ودخول الأحياء الشعبية وأحشاء المدن من دون قتال..

فاكتمل سقوط الوطن.. وأعلن الزيف نفسه: سلطة احتلال».

.....

وقع الشمردل غائبًا بعدما ارتفع صوته بخطبته العصماء، ولم يشعر بتصفيق السكارى في الحانة، وصياح أحدهم:

«الله.. الله يا أستاذ شمردل.. والنبي تيجي بكرة تقولنا بقين زي دول بمناسبة عيد ميلاد البت دي..»، وأشار إلى غانية تجالسه، فيما عاصفة من ضحك صارخ مجنون، تشعل حريقًا من السعادة في البار.

.....

وعند الصبح استيقظ الشمردل ليبدأ يومه بإعداد الخطبة التي سيلقيها بشير في الجامعة بمناسبة حصوله على قلادة النيل.. وكأن شيئًا لم يكن.

.....

وفي ليال تالية، كان بشير وكاميليا الأولى بالتدليل والرعاية ليس – فقط – عند الدولة المصرية السنية، ومؤسساتها العلمية، والثقافية، والتعليمية، والسياسية، وإنما في إطار دائرة ضمت وسيلة، وفريال، وفؤاد ونازك جريس، وكريم خفاجي، ومجموعة من الأجانب، طارحين على العلامة – محل حفاوة البلد – إنشاء جامعة خاصة بدعم من معهد MIT (ماساشوستس للتكنولوچيا في بوسطن)، وبتمويل من الاتحاد الأوروبي، على أن يكون قوام العاملين فيها من العرب والمصريين، وتستقطب طلابًا من كل بلاد الشرق الأوسط، وتصبح أحد صروح السلم في كل الإقليم وربما الكون بأسره.

ووافق بشير..

إذ لم يك سوى صورة.. واجهة، يغذيها الشمردل بالنظريات وبالأفكار، وتقود كاميليا أمورها الإدارية والمالية، فكأنما كان بشير قراقوزًا لليد، يلبسه ابن «مِعجِبة» حين شأن علمي، أو بحثي، وتقوم ابنة سكة النبوية بتلعيبه حين أمر إداري أو تعاقدي.

وكانت فكرة تلك الجامعة – لكاميليا – براقة تحمل في عنوانها أو تفصيلها إغراءً رائعًا لها، وقد بدت على جاهزية كاملة لمجاوبة الغواية، تحرضها فريال، وتوزها وسيلة لصالح مجموعات أجانب ربطتهم بالامرأتين علاقات طويلة الأمد، اختلطت فيها السمسرة وتجارة المعلومات، وهندسة المصالح على نحو بالغ التعقيد.

وتدريجيًّا بدا أن هدف مجموعة الأجانب – يتسع كثيرًا – عن مشروع الجامعة، فأعلنوا أنفسهم ممولين منظمة مجتمع مدني لحقوق الأقليات في النوبة، والصعيد، أو عند البدو والأقباط، كيما تقوم بإثارة دولية حول كل بلاغ تتلقاه، حاشدة كل قوى الضغط لسنادة المبلغين، مولين عليها الدكتور فؤاد جريس والدكتورة نازك، اللذين نشطا في تأسيسها قبيل التئام ذلك الجمع في القاهرة.

كما طرحت المجموعة صاحبة المشروع – مترامي الحدود والأطراف – على كريم خفاجي ترك وظيفته في هيئة الإذاعة البريطانية، وتخصيص جزء من منحة المشروع الأمريكي للشراكة من أجل الديمقراطية، كيما يصدر بها أحد رجال الأعمال المصريين صحيفة خاصة، ويكون كريم رئيس تحريرها، وتعمل تحت لافتة خدمة أفكار الحرية والسلام والتقدم في البلد.

كاد المشروع يتحرك من تلقاء نفسه لفرط وضوحه، وحجم الإمكانات الكبرى المحتشدة من خلفه.

وتوالت اجتماعات أفراد الزمرة في بيت فريال، التي لم تنس أن تشرح لضيوفها أسباب وجود صور فاروق الأول على جدران منزلها، في تكرار للنمرة التي تعودت أدءاها، وبعدما فرغت، وتيقنت من استحسان الحاضرين أو تظاهرهم بذلك، بدأ النقاش حول المشروع وفيه تفهمت أن تكون واجهة مصرية للتمويل، يتمكن – من خلالها – بعض أصحاب الجنسية المزدوجة الإسرائيلية – الأمريكية ضخ المزيد من الدعم للجامعة.

وأراد ماكر أريب من الأجانب المؤتلفين في شقة فريال، أن يثير غددها المفرزة للاختلاق والادعاء، فأشار إلى تكرارها الدور نفسه الذي اضطلعت

به الأميرة فاطمة بنت الخديو إسماعيل في تمويل الجامعة المصرية، يعني ستحيي تراث عائلة محمد علي باشا النبيلة التي ارتبط بها جدودها في لوكسمبورج.

وأرضت الإشارة بنت مبروك، فامتلأت بخيلاء عارم عائشة في الوهم معتبرته الواقع والحقيقة.

ودرس الجميع – لمرات – تعديلات قانون إنشاء الجامعات الخاصة، والذي يشير إلى أن قيام الجامعة وتحديد نظامها يصدر به قرار من رئيس الجمهورية، بناء على طلب جماعة المؤسسين، وعرض وزير التعليم العالي، وموافقة مجلس الوزراء.

وعند تلك النقطة توقف الجميع ملتفتين إلى وسيلة الكاظمي، صاحبة العلاقة الأقوى مع الدكتور عبد العزيز شوقي رئيس الحكومة، والتي حار البعض في فهم خلفياتها أو مداها، وإن لاحظوا تبجيل الرجل الجم لها، وعدم إتيانه إشارة واحدة تشي بكون الصلة خارجة تتجاوز حدود العمل الذي لا يعرف أحد طبيعته، أو الاحترام الذي لا يدرك أحد أسبابه.

وشاعت تفسيرات حمالة أوجه لتلك العلاقة تومئ إلى أن رئيس الوزراء كان على علاقة بنظام صدام حين قيامه بالتدريس في جامعة بغداد قبل شغله منصب المستشار الثقافي في بريطانيا، أو توحي بأن وسيلة – ضمن مروحة علاقاتها الأمنية المتعددة والمتضاربة – هندست صلة بالأجهزة المصرية، وهو ما كان الدكتور عبد العزيز على علم به، وأثار أقصى درجات احترامه للعراقية وخشيته منها.

وأخيرًا فإن بعض المقيمين في لندن أشاعوا أن وسيلة الكاظمي تدير أموال رئيس الوزراء المصري في البورصة، على نحو أدى إلى تعظيم حجم

ثروته في المصارف، بالحق أو بادعاء الربح، وبمبالغ تودعها المرأة في حسابه – حتى لو خسرت حوافظ أسهمه – إمعانًا في السيطرة عليه، واستغلال موقعه السياسي والتنفيذي الثقيل.

.....

طمأنت وسيلة أفراد الجمع المتحلق – في بيت فريال حول منضدة قمار خضراء صارت طاولة للاجتماعات – أن موافقة الدكتور عبد العزيز شوقي مضمونة، ويمكنهم التأكد من وصولها حقائبهم وجيوبهم، مرددة أن الرجل في جيب «الكاتينة» ثم مطلقة ضحكة كمثل التي تصدر عن عاهرة حين يقفش زبون جزءًا من جسمها!

وعندها عمد الحاضرون إلى الإيغال متقدمين في المناقشة والدراسة، والحوار حول باقي مواد القانون، متوقفين أمام مادته الخامسة – المشيرة إلى حق الجامعة في قبول التبرعات والهبات والمنح التي تحقق أغراضها، سواء من داخل مصر أو خارجها – مؤكدين أن تمويل الاتحاد الأوروبي مضمون، والدعم العلمي من معهد ماساشوستس سيكون مفصلًا وشاملًا كل المناهج.

كما وضع الحاضرون تصورًا لتشكيل مجلس أمناء الجامعة من العلماء، والأساتذة المتخصصين، والشخصيات العامة الذين أبدوا حماسًا لقضيتي السلام والتعاون الإقليمي.

.....

وفوق أريكة ضخمة وثيرة، ألقت كاميليا بجسدها المرهق بعد أحد تلك الاجتماعات، مدونة – في بعض بطاقات بحثية صغيرة – ملخصًا لكل ما

دار مسطرة أسماء شادية فتحي ابنة أختها، وقرينها علي الششتاوي، ووائل السيوفي كيما يكونوا نواة جهاز إداري يدين لها بالولاء المطلق، وبحيث يبيت وائل وعلي مديرين تنفيذيين لجامعة السلام، على حين تصير شادية المعاونة الشخصية لكاميليا نائب رئيس الجامعة.

واقتضى الأمر إقناع الرجلين بمتاركة وظيفتيهما في وزارة البحث العلمي، وإحدى شركات الصناعات الدوائية، ففعل علي تحت ضغط زوجته الشابة المخلصة لخالتها، وانقاد وائل للزمرة – كعادته – تعينه خفة مسئولياته وأعبائه، كونه لم يتزوج – متمتعًا – في خجل – لكل من يسأله أن القطار – فيما يبدو – فاته ، فضلًا عن انتمائه لأسرة ميسورة بما جعله – دومًا – أقرب للموافقة على اقتراح بمغامرة.

وأسست كاميليا مقرًّا مؤقتًا للجامعة في الكوربة بمصر الجديدة في مرحلة انتقالية قبل الإطلاق، تحدد لها عامان، معيدة ومزيدة كل التفصيلات على مسامع زوجها، أكيدة من استيعابه وإدراكه، مهندمة حضوره على رأس تلك الجامعة بوصفه صاحب الاسم الساطع الذي اعترف به الوطن – منذ نعومة الأظفار – منتميًا مثل أبيه إلى كوكبة الوطنيين الشرفاء، وصولًا إلى تقلده أرفع أوسمة البلد احتفاء بعبقريته العلمية ذات الوزن والأرجحية الدوليين.

وحين انصرم العامان بدأت الجامعة عملها في مقرها الدائم بالقاهرة الجديدة، وسط احتفالات كبرى وترحيب دولي، وتوافد عليها عشرات من أجانب مجهولي النسب العلمي أو السياسي، يحاضرون، ويناقشون ويطرحون أفكارًا تقود إلى وضع إقليمي جديد ويرون أن تلك الجامعة ستكون رأس الجسر على شاطئه.

لم يك دماغ بشير يحوي شيئًا سوى ريح يصفر، ولكنه عاش اللحظة تياهًا، سارحًا في الأفق، متظاهرًا بالتفكير، حاكيًا لممثلي وسائط الإعلام المصرية والعربية والدولية عن كفاحه العلمي الذي تسلق – بكفاح مشهود – مرتقاه الصعب ليبلغ قمته، وينجز رسالته.

اقتصر دوره في كل المشهد على تكليف الشمردل بكل ما يجد نفسه مطالبًا به في أي مجال، مدخنًا السيجار الكوبي، محتسيًا النبيذ الفرنسي الفاخر، مندمجًا في سلسلة من العلاقات بحريم النخبة في البلد، من كل الأعمار، واللاتي افتتن بشهرته، ومكانته، وأسبغن عليه ما ليس فيه من وسامة، أو روعة ابتسامة، مسحورات بتلك النظرات الجريئة اللاتي بدين عواري لوامع أو سيوف مجردة، المطيحات تماسك أيهن كصعقات موسى يوم دُك الطور، والتي لا تطيق امرأة – مهما كانت عفتها – أن ترغب عنها أو تتمنع.

وتناهت أخبار بشير إلى مسامع زوجته – تباعًا – عبر شادية التي غدت ذراعها الأمني المبلغ عن كل تحركات زوجها، ولكن كاميليا لم تهتز – مرة واحدة – لخيانة زوج علمها الخيانة.

كل ما تقصت أو تابعت كان تأثير أي من نشاطاته العاطفية على مشروع الجامعة الذي بات أمرًا واقعًا في حياة البلد.

لم تحب بشير يومًا واحدًا، وسقت من مسكوب عينها دهرًا كاملًا عاشته شاعرة بأنها قاتلة تضاجع قاتلًا خضب راحتيه دم الشمردل، وانحشرت شقفات لحم الرجل الريفي بين أسنانه ليسلكها بأحد عيدان الخلة الخشبية أو يزيلها ضاربها بلسانه.

لم تصدق بشيرًا وأباه ووطنيتهما الدعية المخلصة لوطن سافر في القروض، والصفقات، والقرصنة، والعمالة، والجاسوسية، واللصوصية، وتصعيد الخراف الأمية الجاهلة، المحدودة، إلى كل مواقع التحكم والسيطرة، مستعدلين على الرؤوس القرون تيجانًا تشي بمنعة المُلك المكين.

كل شيء في ذلك الوطن – الفضيحة، كان للبيع أو الخطف والاغتصاب، حتى المكانة العلمية، وسمعة النبوغ، ومخايل النجابة والعبقرية.

لم تحب بشير الذي تعودت رؤية الكل – أمام أبيه – يفرون كالجنود الهاربين، ملقين أسلحتهم، حفاة الأقدام، رافعين أذرعهم مستسلمين، فيما يتطاوس مسكونًا بالخسة، متسلقًا رضاء أي من قادته، معتنقًا عقيدة الهتاف لوزيره إن كان شهابًا يضيء، فإذا سقط كان أول الباصقين عليه.

وحين تقاعد وأسس شركته الكبرى للخدمات الأمنية، ظل على صلة بالحكام، سواريًا يحظون بتملقه اللزج المتواصل، غواديًا يستحقون نقمته وتهجمه وإنكاره.

أبدًا لم تشعر أن بشيرًا أحبها، أو ضمها، أو لثم الشفتين منها، وهو يعني الحضن، أو الحب، أو القبلة.

كانت له دليل ثبوت على أن شمس الشمردل دانت غروبًا، وأن جيشه المهزوم تارك الميدان، واندمج جنوده مجذوبين تحت الرايات الخضر، في حلقة ذكر «بمِعجِبة»، غائبين عن الوعي، مفترشين الأرض قعيدين، داعين المولى أن يكشف الغمة، وينصر الأمة، ويديم الستر، ويعز أولي الأمر.

فتاة سكة النبوية كانت لبشير، ذلك الهمس المتواصل في أذنيه بأنه انتصر، وثبت رايات الفتح على جسد غريمه، الذي لطالما أحس أمام تفوقه بالعجز.

لم يدرك – أبدًا – أسباب تميز ذلك المسخ الفلاح، ومكانته في كلية العلوم.

لم يفهم كيف يكون الوطنيون قوام صفوف خلفية، على حين تصدر أمثال الولد المتسول مشهد جيله.

كان على استعداد للقتل، لكيلا يقبل أحكام العلم، وإلزامات معاييره.

لم يفهم معنى تلك الموهبة – حين أطال البعض حديثًا عنها – ولماذا سكنت عشة ولدٍ رثٍّ، وعن قصر ابن البطل تغيب؟!

كاميليا هي صورة دامغة لسقوط الشمردل، وجودها إلى جانبه يلاشي ظل شعوره بالنقص أمام الولد الفلاح، من صار – الآن – أسيره، خادمه، صانع مكانته بالسخرة، بالقهر، بالخوف، وبالقتل.

التهمت كاميليا كبد الشمردل في صحن ذهبي كما بنت عتبة، وسالت دماء الولد الريفي على جانبي الشفتين، فيما لاكت – بلسانها – حبة منومة تعينها النسيان، وتهبها سُباتًا تغرق نفسها في بحر غفوته، وبعض هدوء واطمئنان.

لم تتراجع بعدما جاوبت نداء بشير؛ إذ لا تنفع تمتمة الاستغفار، لما يرتكب المرء خطيئة انتحار.

لم يسعفها طموح متاركة الشق المظلم في باب الخلق لكي تتريث، وبشير لم يك لديه الوقت لكي يقنعها بأن الشرف حِمل زائد.

كان الشيطان عجولًا ينظر في ساعته – طوال الوقت – ويدعوها إلى الإسراع، ومصاحبته بعيدًا عن قرف الفلاح الحالم بالعرس الريفي الصاخب.

كثيرًا قشعت في الأفق مستشرفة سفينة الشمردل، المجاهدة وسط الأمواج العاتية الصاخبة السوداء، داعيتها لترسو في ميناء تجويف نهدي صدرها، في بلد المحبوب الذي بات مطبوعًا في ذاكرة البحار بصورة عينيها وضحكتها الفاتنة الصبح، وما تخلف من عطر الأيام الحلوة، وصفاء مياه الحب الإقليمية.

كانت تصرخ – صامتة – في وجه الريح أمام فنار لسنا بخير.. لا تطمئنوا.. لسنا بخير.. ذبحونا.. افترسونا بليل.. ضغطونا لنبدأ – من بدء البدء – طريقًا محفوفًا بالأخطار وباليأس، وأطلوا علينا من شرفة ملعب روماني يتسلون بمنظر أُسدٍ تزأر متأهبة للنهش، مشيرين بالإبهام إلى أسفل...

فإذا ما بلغت تلك الدرجة من الفوران والاهتياج، ارتدت – منصاعة – لأوامر خيار طاغ لا يرحم أسلمته النفس طواعية.

كاميليا..

عقد أبرمه بشير مع الدهر لقتل الموهوب القادم من أعماق الريف.

قست المرأة، مراوغة كل حنين يدهمها لفتاها القديم، وصمت أذنيها – حتى – عن مجاوبة نداء الدم، فلم تر أمها وأباها منذ اقترانها بشيرًا، لم تسأل عن صحة أحدهما أو الأحوال، ولم تسمح لهما بوشيجة صلة – كما جاء في شرط الإذعان الملزم من اللواء جار النبي عند الخطبة – حتى جاءتها الأخبار.. فرار سيدة، ورحيل الطيب.

.....

مبروك الطيب وسيدة جاد.

أجهدت وقائع حياة سيدة روحها، وأنهكت قلبها، وأورثتها بعض تلك العدمية التي راقبت بها ما تصنعه الحياة ببناتها.

ذابت كل من فريال وكاميليا طعمة للدنيا، ولم تعاودنها أبدًا كأن بطنها لم تنفض إحداهما.

وداد كانت السائلة عنها، المكفكفة دمعها، المضمدة جراحها، ولم يك على حِسبِها أحد، سوى ابنتها نادية وزوجها مساعد الأسطى فتحي الذي عاشت في كنفه مطيعة، متحجبة، محتشمة تستنسخ وتكرر قصة وداد بتوزيع جديد.

ولكن الحياة تلاهٍ.. ومسئوليات البيت، والزوج والبنتين سحبت ودادًا إلى بعيد، وقلت زياراتها إلى بيت سكة النبوية، كما تباعد إيفادها زوج نادية، بمبلغ يعين، ويقيم الأود، ويبقى الأبوين على قيد الوجود.

تقلبت أيام الأم المكدودة الصابرة، بين عملها – نهارًا – في منزل السيدة العجوز في المبتديان، ومواجهتها – ليلًا – ثورات الأب السكير، وبلطجته، ونداءه على أيام العز الآفلة من دون جواب.

ولم تعد حصيلة مبروك من الإتاوة العاطفية – التي فرضها بالإكراه العاطفي كذلك على نجوم أخذ بأياديهم في بدايات الطريق – كما تعودها، وشحت إنعامات الفنانين، وبالذات حين انقطعت علاقة فريال وباسم، وجفت ضروع التحنان المشفق على منظر كاميليا طفلة.

قبع الرجل كحطام متكوم في زاوية من شقة باب الخلق، وفاض بثورته على الدنيا، وغضبه من قدره، فوق رأس رفيقة دربه، وشريكة محنته وكربه.. سيدة.. متحسسها حتى يتملك منها، موسعها سبًّا وضربًا حتى يدميها حين لا يجد في صدرها ما يبتاع به خمر الليلة.

وطفشت سيدة وأقامت عند مخدومتها البخيلة لتعمل مقابل لقمتها، في حين راح الطيب يتسول أجر الخمر من بعض أقارب زوجته، مدعيًا إنفاقه ما يعطونه من أموال، في تطبيبها من داء أقعدها كسيحة.

وفي إحدى زيارات مساعد الأسطى فتحي زوج نادية، إلى بيت سكة النبوية، موفدًا من وداد، حاملًا بعض المال، تأخر الطيب في إجابة طرقات الشاب على الباب، وتجمهر جيران الرجل، وأفادوا بأنه لم يخرج من يومين، وتقدم الصول كامل – ومعه بعض شباب البيت – وكسر الباب، فألفوا الطيب ملقى على ظهره، مفتوح الفم والعينين، يمسك في يده بزجاجة خمر للجيب صغيرة، ويقبض بالكف الأخرى على أوراق مجلة قديمة، فيها إعلان عن أسماء بعض نجوم الزمن الماضي، مذيلًا باسم وكيل الفنانين: مبروك..

وحين أبلغ مساعد الأسطى ودادًا وزوجته، هرولتا إلى باب الخلق، وقامتا بالواجب، أما كاميليا وفريال فقد أحجمتا عن الظهور في ذلك المشهد، مكتفيتين بتعزية أختهما هاتفيًّا، مادحتين شهامتها، وشعورها بالواجب، وكأن لا صلة لأيهما بوكيل الفنانين الراحل.

.....

قسا قلب كاميليا، منذ تعلم معنى الغدر، وطعن الولد الريفي في مقتل.

تحجرت روحها يوم عاشرت بشير الذي لا تحبه، وتقلبت على فراش رجل تعرف أنه لا يحبها كذلك.

لم تضعف أمام رحيل الأب، وهروب سيدة، وما ذرفت دمعة في موت الطيب، أوهمت تبحث عن أم ذابت وسط زحام البشر، وغابت في جوف الأيام.

هو ذات الاستقواء على النفس، والتجبر على كل ما حولها، ومن حولها.. هي تلك الأيام الجدباء الصعبة التي قدت في جوفها قلبًا من حجر، فسارت في طريق موحش معتم، مخفورة بمناخ الحرمان القاتل، ومحوطة بأزهار القسوة تستسقي ماء الشر من دون ارتواء.

لم يعد لها سوى وسيلة، وفريال، وكريم وفؤاد ونازك.

رابطة جمهورها الجديد، المحتشد لتحيتها حين نزول إلى أرض الملعب.

فهمت ماذا يعني مشروع الجامعة – بدقة – وعرفت كل حدود اللعبة، وساقت معها بشير، الرجل الواجهة، الغارق حتى شواشيه في طعم الخمر، ولَمَا النسوان الحلو، المستمتع بإشادات الناس، في البلد المغشوش الغشاش، مشيرًا – كلما استقبل ضيفًا في مكتبه – إلى صورة الرئيس فوق دماغه، قائلًا: «والله لولا هذا الرجل ما كنت بذلت العرق أو الدمع أو الدم، أو أنجزت صروح العلم، أو عانيت وتعذبت وكافحت من أجل عيون الوطن الأم».

باتت كاميليا هي عقل المشروع، وعمود فقري يحمل بدن الجامعة البازغة، ويعرف أن الهدف ليس البحث أو الكيمياء، لكن الغاية سياسية، من دون التباسات وهمية أو خلط للأشياء.

وغابت تلك الروح الجبارة عن مجاوبة نداء الواجب أو العاطفة أو القلب، وتناست – في غمرة التخطيط وحسابات الإدارة – إلزامات أمومة واجبة السداد والوفاء، رعاية وحماية وإحاطة وحبًّا.

.....

هنا ورنا..

عصفورتان صغيرتان، تنقران حبات القمح بنزق، وتلعبان على أغصان ازدانت بثمار الكمثرى، كثريا ترصعها حبات كريستال.. تغردان، وتبللان أطراف الأجنحة بمياه نافورة مدخل قصر الأب في «ميراج».. تترامقان بعدما تشير إحداهما للعش، متسابقتين إليه، مشقشقتين، مزقزقتين، مثيرتين قدرًا من جلبة يشع سعادة وهناء.

عاشتا في رغد الكذبة، في كنف القتلة، تمتلئان فخرًا تياهًا بأب مرموق، وضع – حولهما – آلاف خطوط تميز أو سبق عن كل رفاق الجيل.

معجبتان – كذلك – بالأم المسئولة، والمضطلعة المهمومة بمهام متعددة، غامضة، مستغلقة على الفهم صعيبة، تستكمل مشهد المثالية، في عائلة هي – في نظر الكل – نموذج للاستلهام أو المحاكاة.

ما أحلى أن تشعر أيها أنها جزء من تلك الصورة الرائعة الوضاءة.

حجب ألق المجد عن البنتين شعور الحاجة لحنان كاميليا، وأبوة بشير.

أنجب الزوجان بنتيهما، وكأنهما يستكملان مهمة صدر بها تكليف من المكتب السياسي لحزب حاكم.. دون محبة، دون مجاوزة حدود عضوية للرغبة.

عمدا إلى إغراق الفتاتين – اللتين عاشتا سنوات الطفولة والتكوين في بريطانيا – بكل ما تصوراه باعثًا على السعادة، ومشبعا لاحتياج؛ إذ أورثاهما عزًّا ظل حاضرًا حتى شبتا، وصارتا غصنين مالا من حيث استويا، فسرى في عروقهما نداء أشياء لم ينتبه الأب الغارق في النزوات، أو الأم المغرقة في هندسة وتشييد مؤسسة القوة، إلى كونها ضرورة، إن لم تجدها البنتان، بحثتا عنها في ساحات أخرى، وعند آخرين.

وفي فرع الجامعة الأمريكية بالتجمع الخامس، كان الآخرون.

رفاق ورفيقات تملكهم إحساس الضجر من المقدرة المطلقة على استملاك الدنيا، وتجرع لبن العصفور، فاندمجوا في طقس تمرد، يكفر بالكبار، يخترق قداستهم، منعتهم، يرفض أن يبيت أحدهم عصيًّا على إطاحة سلطته الرمزية.

انغمس الأولاد في كل نواه نبه أولئك الكبار إليها، وعرفت كل من رنا وهنا تجريب كل التجارب، جنسًا وحشيشًا أو بانجو، أو هيروين.

وتناهى إلى مسامع الجد اللواء المتقاعد بعض من أخبار الحفيدتين، عبر أحد تلامذته – من الضباط الشبان – رأى أن واجبه إبلاغ الباشا لكيلا يقع الفأس في الرأس، وتتورط البنتان في قضية كانت خيوطها تتجمع حول تشكيل شباب ضال، استخدم التخاطب عبر شبكة المعلومات الدولية لتنظيم أنشطة جنسية، وعلاقات دعارة، مقابل أموال يستخدمها أفراد المجموعة في شراء المخدرات.

وأسقط في يد الجد، الذي لم يجد بُدًّا من إبلاغ بشير وكاميليا، مؤكدًا أن الموضوع مازال تحت السيطرة؛ لأن البنتين ليستا – كما علم – مدمنتين، ولكنهما تورطتا في علاقات غير مفهومة مع بعض شباب.

واهتاج بشير، فيما استعادت كاميليا – في التو – بعض تراث سكة النبوية، لاطمة خديها بالشبشب.

واندفع الأبوان في إجراءات عقاب وروادع، مانعين زاجرين، ثم لانا، ومالا مستميلين محاورين، عائدين – حين تذكُّر أبعاد الموقف أو اليأس من اللين – إلى الصراخ أو العنف، مهتمين – فقط – بالاطمئنان على حالة العذرية، وحزمة أخرى من أمور شكلية.

وبعيدًا.. بعيدًا في إحدى الجزر النائية لفكر ووجدان الأبوين، أو العقل الباطن، حرك شيئان تلك الثورة العارمة ودفعا إليها.

الخوف من الفضيحة.

وذكرى سمير التميمي.

كانت الهتيكة تعني تناسلًا للخبر في كل وكالات الأنباء، ووسائل الإعلام.

كانت تعني أن الأب الحائز أعلى تكريمات الدولة، والتي يحتضنه مسئولوها بكل بشاشة، أهدى البلد بنتين حملتا لقبي العار: «داعرة» و«حشاشة».

كانت تعني أن المثل الأعلى سقط – قتيلًا – في الأوحال.

كانت تعني غياب نقاء الصورة، وبخر الآمال.

كانت تعني أن سميرًا حين لم يجد من ينصفه على الأرض، وجد من ينصره في السماء، ويمنح سلسال قاتله نفس الوصف، ويطوق عنقي البنتين بذات التهمة.

كان دوي الهمس بتلك الأفكار يعربد في أعمق أعماق كاميليا وبشير، ويبدد التذاذهما بتحصل أموال الدعم لمشروع الجامعة التي باتت واحدًا من أكبر مراكز النفوذ والتأثير في البلد، ويلوح – في بلطجة – بإطاحة كل بناء المجد الشاهق، ويمسك بأطراف الأصابع قنينة من ماء النار، يوشك إفلاتها كيما يتناثر سائلها الحارق فوق المشهد، ويحيل بهاء اللحظة مسخًا شائهًا، لا تنفع فيه جراحات التجميل.

جاءت كارثة البنتين، في المرتبة الثانية أو الثالثة، الرابعة.. الخامسة.. الأخيرة..

الخوف كان على السمعة البيضاء، وجمال الصورة.

والخشية كانت أن ينهار بناء المجد ويدفن حلم الأسرة في الأنقاض.

كانت كاميليا رابطة الجأش تفكر في حل معادلة الموقف الجديد، وتختبر جميع مخارج تلك اللحظة، وتحاول أن تعبر فوق الأزمة وتعود إلى مشروع القوة.

هي تعرف أن التمويل – بكامله – يصل حساب الجامعة باسم بشير، وأنها – بحكم منصبها الإداري – صارت متصرفة في كل الإنفاق.

هي تعلم أن العلة ليست في شخص بشير، ولكنها في الهدف المخفي من تلك المؤسسة، والذي تراه القوى الدافعة إليها، والممولة لها.

ومن ثم كانت تستميت في تقديم نفسها لمجموعة الأجانب مشيرة إلى كونها صاحبة قرار الحل أو الربط.

وتآكل إحساس الهلع حول حكاية بنتيها، ثم تلاشى وذهب مع الريح.

وعادت كاميليا إلى إدارة الجامعة ورعاية وصون دورها مجتمعة مع الأطراف المعنية في نهارات صاخبة ملأى بالتكليفات أو الأوراق، ثم مؤتلفة معهم في حفلات ليلية تشهدها شقة فريال، وريثة دور الأميرة فاطمة بنت الخديو، وهو أكثر ما غاظ كاميليا في كل الوقائع المرتبطة بذلك الصرح العلمي.

اجتهدت بنت سكة النبوية.. الممرضة السابقة، منقطعة لعملها، غائبة عن بقية دنياها، حريصة على رضاء مجموعة الأجانب المتحكمة في صنابير التمويل.

ولكن أولئك الأجانب رأوا فيها ما لم ترَ؛ إذ بمقدار ما أحبوا إقبالها النشيط والمتفاني على العمل، وذكاءها الفطري الذي عبر بها إلى فهم كنه المشروع الحقيقي وغايته، ورعايتها الفائقة لكل الأساتذة الأجانب الوافدين للتدريس، إلا أنها – في نهاية المطاف – ليست كفؤاد ونازك وكريم، الذين طال إعدادهم لهكذا مهمات، وتنوعت اختبارات ولائهم على نحو يضمن السلامة والأمان.

هجر كريم مؤسسته الصحفية القومية التي عمل بها فور تخرجه من كلية الإعلام، محتلًّا بهاجس عدم الجدوى الذي امتلك عليه حواسه وتفكيره، صارخًا في وجهه بأن لن يغدو شيئًا يكافئ موهبته أو يساوي تفوقه، فطريق الترقية إلى معظم مواقع القيادة في الصحف الرسمية كان الأمية والجهل، وتصور أي طريق آخر لا يعني سوى الاكتفاء من الماء بالسراب.

كان كريم يرقب محدودية رئيس تحريره، مذهولًا، معتبرًا أن وجوده – في ذاته – حالة زنا بالبلد، يشاهدها ولا يشهد عليها أربعة.. أربعون.. أربعمائة.. أربعة آلاف من عدول كالعجول، آزر كل منهم شقيقه بخوار متزن وقور، معلنًا أن الدوائر ليست – بالضرورة – على الجهلة تدور.

وبدا كريم متعجبًا من تعجب أقرانه وزملائه لآرائه التي لا يكف عن ترديدها، ويومًا وراء يوم امتلأ برفض ثائر، واختمر مشروع سفره أو هجرته، حين كان كأس المهنة – التي نذر لها العمر والفكر – مترعًا حتى الحافة بِهَمٍّ وتسهيد، وصار عليه أن يتجرعه – كل يوم – مائة مرة، وهو يتأمل رئيس تحريره البائس الذي يستعرض محدوديته وأميته على نحو مفعم بالثقة، والتباهي، والمقدرة الغليظة على الزهو بجهله في كل اجتماعات جهاز التحرير.

تقدم كريم لاختبارات أجراها القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، ونجح – بامتياز – وسافر إلى لندن ليعمل وسط حضور للمهنية، شاعرًا بأن له أولًا وآخرًا، من بعد طول ضياع.

وتحصل عملًا إضافيًّا كمترجم في إحدى الجرائد العربية الدولية في العاصمة البريطانية، فاكتمل إحساسه بمعنى العمل الإعلامي الذي

افتقده في ظل الشغل مع رئيس تحرير حمار ملأ الدنيا – في القاهرة – وشغل الناس.

شعر براحة كبيرة حين تحدث – بتشف وشماتة – مع أي الزوار المصريين لبريطانيا عن حال صحافة مصر، وتخلفها، ونظرة العرب والأجانب الساخرة منها، لا بل كان يبحث عن أولئك الزائرين – عن قصد – لينخرط معهم في هكذا أحاديث، أو يتعمد لقيا أحد أفراد البعثة الديبلوماسية في حفل استقبال أو مؤتمر كيما يوسعه كلامًا – كالوخز – عن إعلام وصحف بلاده المحروسة.

فصَلَ غياب العدل، وعدم حضور المهنية كريم عن مصر، وبات يدفعه – لحوحًا – إلى الدولية، أو رابطة تتعامل بحياد بالغ مع أحوال الوطن الأم.

غصت صفحات جرائد بريطانية وعربية بتقارير كريم القاسية الممرورة.

ابتعد الرجل عن البلد، وصار قريبًا جدًّا من كل المعترفين بقدراته وكفاءاته، أيًّا كانوا، وأيًّا كانت دوافع أو أسباب الاعترافات.

وانجذب كريم لمصريين لقاهما – صدفة – في أحد مؤتمرات حزب العمال السنوية بمدينة «بورموث»، وعرف أنهما يعيشان في بريطانيا منذ سنوات عشرين، ويعملان طبيبين في مستشفى «هارتفيلد»، وانضما للحزب وصارا جزءًا من منظمات أهلية لحقوق الإنسان، تدور في فلكه، وترتبط بقياداته.

ائتنس كريم برفيقي الغربة، اللذين حملا في قلبيهما قدرًا من الرفض والغضب، راقه وأرضاه.

إلا أن غضب الطبيبين كان لأسباب أخرى، حين وجدا الوطن يتحول صوب صيغة غير تلك التي نشأ كل منهما ورُبِّيَ عليها.

خافا عربدة كتائب التخلف والتطرف، وشعرا – لأول مرة – بأن الدين صار الصوت الحاضر في كل الساحات.. يفرز.. ويصنف.. ويميز.. ويقر حدودًا أخرى للوطنية ويمعن في الترسيم.

شعرا بأن الوطن يضيق، ويدفع أيهما لعبور البحر، والإلقاء بمرساته بعيدًا، في ميناء لا يشعرهما نفس الخوف.

بات فؤاد ونازك جريس أشهر المصدِّرين بيانات إدانة حقوقية حول الأحوال المصرية، وأسهم كريم في إفشاء وإشاعة معظمها بكتابات في الصحف، وتقارير بثتها محطات إذاعة أو أقنية تليفزيونية.

كان الجمع أرضًا خصبة لمن يرغب في نثر بذور تآمر، واستقبلت الأسماك الغضبى طعوم الصيد بكل سذاجة واطمئنان.

وتعددت لقاءات أضلاع المثلث في شقة فريال، وتعرفوا وسيلة، وكاميليا، وزوجها النابغة، كما استقبلوا فيضًا من نداءات الوز اللحوح، والتحريض على تدعيم تلك العلاقة، من دوائر أجنبية – اشتغلوا سنوات لها أو معها – فسمعوا – مليًّا – ثم أطاعوا.

وفي مصر بات كريم رئيسًا لتحرير جريدة (التقدم)، وأدرك أن الدنيا صغيرة بالفعل، حين اكتشف أن المالك رجل الأعمال الناشر كان شريك مشاريع أخرى مع مجموعة الأمريكيين – الإسرائيليين، المحركين لإنشاء جامعة السلام.

وباتت صفحات (التقدم) ساحات رحبة لتنفيذ تكليفات متنوعة تعمد إلى إرباك الحال السياسي، وتهييج الناس، وتصنيع للكذب، وتحريض لحكومات الغرب كيما تتدخل أو تضغط، كما صار فؤاد ونازك جريس من أبرز كتاب المقالات في الجريدة، مستخدمَيْها في تسويق منظمة حماية الأقليات وقضاياها.

وبين بنود جدول أعمال صحفي مزدحم، كان المشروع الرئيسي للجريدة هو ترويج وضع جامعة السلام، وتبني مشروعاتها وأفكارها، وسنادة كل الشخصيات العامة المرتبطة بها، والذين باتوا – أجمعين – كبار الكتاب الأولى برعاية كريم والناشر.

.....

رأت كاميليا في تلك المجموعة جيشًا صغيرًا يصون حدودها الطبيعية ويحمي وجودها ويشاركها الارتباط.

بغيرهم – وزمرة الأجانب – كانت تستشعر هشاشة كبيرة أمام قوتين تتجاذبان كيانها الضعيف، موشكتين على إحالتها مزقًا.

زوج لا تحبه، يغتصبها – كل ليلة – رافعها بالضمة، وحبيب خانته، تاركته – ما بين المنى والمنية – مكسورًا بالقهرة.

مع تلك المجموعة – ونجومها من الأجانب – أحست أنها قوية.. أقوى – بكثير – من اللواء محمود جار النبي، وبأنها وضعت معجمًا عن لغة جديدة، ينبغي على الكل التزامها، والكلام أو التفكير بها.

مع العمل في تلك الجامعة امتلأت ابنة سكة النبوية بجبروت عارم، وتراجع ظل بشير وتوارى، مكتفيًا بوظيفة عروس اليد، ومجالسة رجال

الحكم، والتظاهر بالفلسفة والحكمة، والادعاء بأشياء وراء الأكمة، والمرمغة على فراشات النسوة.

لم تك لبشير مهنة حقيقية، كانت الخيانة – فحسب – هي شغلته التي أبدع فيها الصناعة والصياغة.

بعدما انتصر على الشمردل – تحت غطاء أبيه الحامي – بعدما استعرض غنائم المعركة، وأجلس أسيره القرفصاء واضعًا الراحتين فوق الدماغ، شعر بالكدر، وخلو حياته من أي إثارة أو معنى.

كابد إحساسًا خانقًا بالبطالة، وبحث عن نصف فرصة عمل يستثمر فيها مواهبه ومؤهلاته، فلم يجد سوى لافتة: (لا توجد وظائف خالية).

كان عمله الوحيد هو إذلال الشمردل، وأفاض في ذلك الشغل حتى خامره شعور خارق بالملل، والرغبة في التخلص من ذلك الرجل محني الظهر، مقصوف الرقبة.

بات وجود الشمردل عذابًا لبشير، كما كان وجود بشير عذابًا للشمردل.

القسوة – في بدايتها – كانت شهية، ولكن وقائعها تشابهت – اليوم– كصحف الصبح، وأوراق أوامر إداريـة، أو مستنسخ قانون، أو محضر جلسة.

زهوقًا – كان – بشير حين رأى عمله – الآن – محض تكرار وإعادة لجريمته الأم.. لا يعرف إلاه.. ويكرر فيه – كل صباح – شطب الخط الفاصل بين خطيئة وصلاة.

لكن شيئًا ما اقتحم الملل، ووعد بشيرًا تسرية كبرى، بعد لقائه رئيس الوزراء، الدكتور عبد العزيز شوقي في أحد نهارات زاهرة للوطن الزاهر.

رجع دعي العلم إلى قصره، وجلس قبالة مذياع مرئي، محتسيًا كأس نبيذ رائع، مشعلًا سيجارًا، مقلبًا أقنية التلفاز، متوقفًا أمام صورة فتاة عارية في إحدى محطات الجنس – تنادي شابًّا عربيًّا، غامزة، متقلبة، متأوهة، تهمس بفحيح مجنون – ثم نقل بشير مؤشر تلفازه إلى مباراة للكرة في قناة رسمية، واستقر – بعد ذلك – غائصًا في مقعده الوثير المريح منتظرًا أمرين.

تسلُّم أوراق بحث مهم من الشمردل، سيثير ضجيجًا هائلًا في كل الأوساط، وكان المفترض أن يحمله إليه ليل الأمس، ونبأ يتوقعه في نشرة أخبار الليلة.

لكن واردًا جديدًا عاجله قبل الأمرين.

مكالمة من أبيه اللواء محمود – الذي بدا مرتبكًا متلعثمًا ومتخليًا عن لهجة الثقة اللزجة التقليدية التي طبعت أداءه طول عمره – مخبره بأن قوة شرطة كانت تتابع وترصد علاقة واتصالات بعض الشبان العرب والمصريين، ألقت – منذ ساعة – القبض على هنا ورنا ومجموعة أولاد بتهمة حيازة وتعاطي المخدرات، وممارسة الدعارة، وبعدها اعترف شابان خليجيان وآخر مصري لضابط صغير السن سخيف، يجهل أقدار الناس، وقد رفض قبول رجاء اللواء المتقاعد، أو تقفيل المحضر، محررًا ومسجلًا كل الأقوال والاعترافات، ومثبتًا واقعة استبقت لحظة إلقاء القبض على الجمع، حين شغب الأولاد وصخبوا على رجل رث غلبان كان يوشك بلوغ باب القصر، وسخروا من شكله، وضربوه، وبصق أحدهم في وجهه – متسائلًا دهشًا – عن مظروف يحمله الرجل وعن نوع الورق الذي يحوزه أمثاله، وحين اقترب الولد مادًّا يده طالبًا الأوراق راح الرجل يعدو.. يلهث.. يحتضن المظروف ويجري

والأولاد المسطولون من خلفه بسيارات تتلكأ حتى تزيد المتعة، والبنتان -على إحدى الأرائك الخلفية - في أوضاع شائنة بين الشابين الخليجيين.

وعبثًا حاولت الشرطة البحث عن الرجل - الذي ضربه أبناء السادة - كي يدلي بأقواله، إلا أنه تبخر وكأنه عفريت أو جن كما حضر اختفى، وإن كان بعض الحراس أفادوا بأنه الشمردل، وقد حضر في الليل - ثانية - سائلًا عن سيده.

.....

وفي أعقاب مكالمة اللواء، أطرق بشير، واستند بكفه على ظهر المقعد، فيما توالت مهاتفات من صحفيين، وبعض عناصر فرق الإعداد في برامج الحوار التلفزيونية المسائية، وامتنع بشير عن إجابتها، متصورًا أن الفضيحة الكبرى بدأت في شخللة جلاجلها.

تهاوى الدكتور على المقعد، لا ينبس بحرف، وشعر بأن دماغه يغلي، وبأن شعيرات دماء تحتقن وتنفجر - تباعًا - تحت الجلد، وتشيع دمارًا أو فوضى في كل مكان، أسلاك أو وصلات - متوالية - تحترق في قلب الآلة، موقفة جزءًا تلو الآخر، مطفأة كل الأنوار.

أسند بشير - في تهاويه - الرأس على الكف، فيما ازدحم الوعي الباقي بصور وجوه يعرفها، وأخرى ترمقه، محدجة، غاضبة، ساخرة، لا يعرف ماذا تريد أو لمن تكون.

سمير التميمي.. نادية فتحي.. الشمردل.. كاميليا.. علي الششتاوي.. رنا.. شادية.. وائل السيوفي.. عبد العزيز شوقي.. فريال.. هنا.. وسيلة.. وجمهرة أخرى كبيرة، ربما كانت كل الناس.

وواصل الضوء شحوبه وانسحابه من على تلك الوجوه، وتوالى انفجار الشعيرات في رأس بشير فيما تدوي بلاغات توقف أعضاء الجسد عن الحركة والإحساس.

ومضى كل شيء في لمح البصر.. مال بشير على مسند مقعده، وانحنى رأسه على صدره جامدًا عن أية حركة، فيما سرى صوت التلفاز:

«يؤدي الدكتور بشير جار النبي اليمين الدستورية في مقر رئاسة الجمهورية صباح الغد كوزير للبحث العلمي، ضمن التشكيلة الوزارية الثانية للدكتور عبد العزيز شوقي رئيس الوزراء الذي كان عقد اجتماعًا مطولًا مع العالم الدولي ظهر اليوم بمكتبه.

وقد حاول مندوبو قطاع الأخبار الاتصال بالقطب العلمي الكبير للتعليق على النبأ إلا أنه امتنع عن الرد.. و..».

openkandl.com

5

رفع الشمردل يده بنصف تحية إلى النادل، وبعض زبائن خمارة الفجالة، حين قادته قدماه – كما العادة – إلى محله المختار لكي يغتسل من اليقظة، وعذابات الأسئلة المؤلمة القسرية، ويراوغ عقله، ويهدهده – مثل الطفل المخدوع – وينيمه فيغرق في غفوته، فور سماع الحدوتة.

فرض رحيل بشير قيام الرجل – ريفي الأصل – بجردة عُمْرٍ، حاول –معها– أن يعرف موقع قدميه في اللحظة، وكيف تكون سمات الزمن الآتي.

مشى الشمردل في جنازة بشير، كيما يقنع نفسه – فعلًا – أن غريمه مات.

صمتت دقات القلب، وجمد العقل، وسجى جسده في سابع أرض ومات.

لم يفرح أن بشيرًا لفظ الأنفاس ومات.

لم يشعر – حتى – بالحرية إلا لسويعات، ثم اجتاحه شوق جارف لطوق عبوديته، وسلاسل قيده، التي لم يعرف إلاها طوال العمر، منذ تجريف روحه، وزرع غريزة المهانة في أعمق عمق من تجويف الصدر، ومنذ إخضاعه لإلزامات إقامة جبرية في حيز عدم الإمكان.

لا يعرف الرجل – الآن – ماذا يفعل، يبدو طفل سِفاح وضعته خاطئة اغتصبها زمان مجرم، فألقته على باب الحانة، وجواره صحن من ترمس.

لا أحد يريد التقاطه.. لا أحد التفت إليه، لم تبد قوة قهر بديلة رغبتها لتبنيه.

أَلِف ثواني العمر طيعة في الإذلال.. عصية في الكبرياء، فماذا يفعل حين لا يجد من يقهره، لم يعد يعرف لنفسه وظيفة أخرى سوى أن يكون خادم بشير، وتابعه، وحذاءه.

مضت ساعات على رحيل الدكتور، ولكنها كانت كافية كيما يستشعر الشمردل أن أزمته الحقيقية لم تعد طغيان سيده، وإنما استقباله حياة بات عليه أن يفعل فيها شيئًا آخر غير خضوعه للطغيان.

نظر الرجل الضائع إلى صفحة الخمر في كأسه، وخالَهُ مملوءًا بسفن ورقية صيغت من صفحات دراسات بحثية في الكيمياء - تتكأكأ.. تتدافع.. تتضاغط، حتى يغرق بعضها بعضًا في قاع الكأس؛ لتمتلئ المنضدة - بعدها - بقوات إغاثة وطوارئ، تصارع الليل والأمواج لتنتشل حطام مراكب الشمردل، بعد أن أبلغ مجهول عن الحادث.

همس العرافة لشفاه يتردد في جنبات رأس وصدر الرجل المتهاوي:

«سيكون عقل الوِلد وبالًا.. إن كان ذكيًّا فليتغابى».

لم يحذر.. لم يتأبط شرًّا.. لم يدرك أنه يحيا زمانًا ملوكه رعية، ورعيته ملوك، وأن موهبته ستقوده إلى موقع خادم، وأن غياب الموهبة سيزف بشيرًا إلى إيوان المجد.

موكب مملوك حاكم تتقدمه صفوف الركبدارية والبندقدارية، فيما تدوي المدافع من فوق أسوار القلعة معلنة تنصيب خروف عاجز جديد على عرش المقدرة والإبداع.

بكى الرجل وغشي عينيه دمع كالنقاب، كان استرجاعه وقع الظلم أمضى من طعنات النصل، وكان غياب الظالم يلقي في الأجواف شعورًا محتدمًا بالخوف، ونداء ملهوفًا يستعجله العودة.

فك طلاسم هذا اللغز يقع في قرباز كاميليا، التي عرفت الحقيقة منذ بدايتها، حين لقاها الشاب وباح إليها بأمر بشير وأبيه وسمير، وعاش – من حينها – بملابس رجل آخر، وملامح رجل آخر، لا يقوى على مواجهة الخوف، وقهر القهر، ودفع الثمن المرعب لتحدي السادة.

كانت كاميليا جاهزة للعبور فوق اللحظة، بعدما نسج بشير كل خيوط غوايته حول عقلها وروحها، ودفعها – برفق – إلى طريق – وجدت خطو قدميها يتسارع فوقه لاكزها أن تكمل، معنفها أن تكمل.. كان عليها أن تكمل، لم يك في مقدورها أن تتوقف أو تتراجع، أو – حتى – تلتفت إلى الخلف.

لن تبدل حلم العرس الفلاحي بدنيا بشير المتألقة الوضاءة، الزاخرة بالبريق والألوان، المفعمة بالنفوذ والقدرة، المتلألئة بالسعادة وباليقين.

هي تعرف..

رأته – مرات – في أكسفورد يسلم زوجها مظاريف بحوث أو أوراقًا كموج البحر متتابعة.

سألته – لابد – عما يفعل الشمردل هناك؟

فهمت – لابد – أن وظيفته في أكسفورد كانت استكمالًا لدوره في كلية العلوم بالقاهرة.

هي تعرف..

هي ليست كوائل وعلي.

تظاهرا بالاستعجال يوم لقياه – مصادفة – على باب مكتب الدكتور بشير في «الكوربة» فسلما عليه وسارعا بالابتعاد – بالضبط – مثلما اعتادا منذ واقعة سمير، حين فرض الأهل عليهما تجنب موطن الشبهات.

كان أمر الصديقين القديمين هو الملف الوحيد الذي سمح الشمردل لنفسه بسؤال بشير عنه، يوم لقاء الصدفة أمام المكتب، فأجابه الدكتور، مغرقًا في ضحك صارخ: «إنهما يعرفان أن والدي عطف عليك وساعدك كثيرًا، متوسطًا لحصولك على منحة دراسية لمدة شهور ستة في أكسفورد، وأنك عملت في عدد من المتاجر – هناك – حتى تكمل الدراسة للماچستير والدكتوراه ولكنك فشلت، وعدت إلى القاهرة، فعينتك مساعدًا شخصيًّا، رغم انعدام فائدتك لي.. إلا أنها العواطف الأخوية، والإخلاص للذكريات كما تعرف.. ما رأيك في تلك القصة يا شوشو؟!».

حار الشمردل ردًّا أو جوابًا، وأطرق حزنًا وخجلًا، وأحس ظهره يزداد انحناء.

كاميليا تعرف..

لأنها رأت بعيني رأسها بدء المأساة، وسمعت منه – يوم انتظرها على بوابة قصر العيني – بنود الإلزام التي أعلنه بشير، ولكنها كانت – حينها– حزمت أمرًا بمتاركة الشاب الفلاح، وراحت تعدو إلى الشيطان فسبقت ظلها.

انخرط الرجل يعب كؤوسًا متتابعة، ويجيل العينين الذاهلتين في كل الأركان، محاولًا استشفاف شاردة، أو واردة تنبئه أن أحدًا من محيطيه في الحانة يعرف.. أو شخصًا في كل البلدِ الظالمِ أهلُه يعرف.

لا أحد يعرف غير كاميليا، شهدت توقيع وثائق الاستسلام وإسقاط الجنسية، عن شاب عاشق اقترف ذنب الفقر، وذنب الضعف، وذنب الحب، وذنب العبقرية.

مالت مئذنة المسجد يوم خيانتها، وتشققت قبته لتفقس إمامًا صغيرًا فرخًا يؤذن للضلال، فيصطف الناس – من خلفه – صفوفًا في كل تبتل وضراعة.

أنكرته شفاه – يوم رحلت بدرناس – وأشاحت عنه قبل أن يصيح الديك؛ لأنه خان وصية الجد، وأنكرته كاميليا من دون ديكة أو صياح لأنها خانت عهد الحبيب.

«أغيثيني.. امنحيني حياة أخرى.. بوحي بالسر.. رحل الطاغوت فبوحي.. أعيدي ملامحي فوق وجهي الثقب.. تذكري الوعد.. العرس.. وأيامًا صافية حلوة كقطرات العسل، والندى، والأمل».

واصل الشمردل الذي استحال كرة من لهيب، تتدحرج على منحدر لا يسمح لها بالتوقف.

«لم أجترئ على معاودة (مِعجِبة) منذ رحيل بدرناس، وتلك النظرة الفياضة بالحزن والغضب التي غمرتني بها الجدة.

لم تعد لي صلة بشفاه سوى رجل من بلدتنا يعمل حارسًا لبناية تجاوز سكناي.

(مِعجِبة) لا تعرف الشمردل الثاني الذي وُلد من رحم القهر، والخوف، وغياب الكبرياء.

بلدتي – بأكملها – تعرف النصف الأول من حكايتي، والذي مد بشير وأبوه أسوار الأسلاك الشائكة حوله تمنعني الوصل والاستمرار.

الفراشات الحائمة على شواشي النوار في الغيطان فضحت أمر حبي لك، وحكت للعصافير والنحل عن همسات العشق، ولمسات الرغبة، ونار الشوق، وحلم العرس.

كل فرخ صغير كامن تحت جناح أمه في (مِعجِبة) عرف بحكايتنا، مشيحًا عن كل بيانات التكذيب القامعة نوايا العرس، والمنكرة حملي أميرتي إلى القمر فوق جواد أبيض، يتراقص نشوانًا من دق الطبل، ونغمات المزمار.

ورجال البلد يئنون بسلخ من موال – صرخه كانوا يأتنسون بكِلمه أو حزنه، تحت الشادوف، منتظرين نداء الدعوة لحضور الفرح المشهود..

(رمان على السواجي.. رمانك الحلو اللي ما يندا جي).

طال الشوق بنساء وبنات الناحية، كيما يرقصن، ويزغردن، ويغنين لعروس بشرهم الحلم موكبها، كما وعدهم الحناء.

وشفاه قاومت الموت، منتظرة الوِلد يعود في أي من أطفال القرية، ويقيم العرس، ويدعو الناس، قويًّا.. صلبًا.. مرفوع الهامة.. مفرود الظهر.

والذاكرون رفضوا إلقاء بيارقهم، رفضوا إحراق قصائدهم، رفضوا الخرس عن الإنشاد.

.....

يـاااااه لو رسم الراقي حرف اسمها.. على جبين مصاب جُن أبرأه الرسم».

.....

تداخلت صورتا كاميليا وبدرناس في مخيلة الرجل فيما تصاعد صوت الإنشاد.

.....

«ولوْ ذُكِرَتْ في الحَيِّ أَصْبحَ أَهْلُهُ نَشَاوَى وَلا عَارٌ عَلَيْهم وَلا إِثْمُ
وَلَوْ لَامَسَتْ منْ كأْسِهَا كفَّ لامِسٍ لَمَا ضَـلَّ في لَيْلٍ وفِي يَـدِهِ نجْمُ
شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الحَبيبِ مُدَامَةً سَكِرنَا بهَا مِنْ قَبلِ أنْ يُخلَقَ الكَرْمُ..
روحي .. روحي.. روحي».

.....

ضغطت يد الشمردل على حرف المنضدة حتى أوشكت أن تغرس أطراف الأصابع في خشبها فيما خيم على وجدانه طيف الجدة شفاه، توخز عروسًا ورقية جوار فراشه – طفلًا – كيما تدرأ عنه العين وتخزيها.. وصورة كاميليا تتأمل ما رسمته التنوة في قاع الفنجان، ثم يعود همس نبوءة الحلبية العرافة يطن في أذنيه لحوحًا: (سوف يكون عقل الوِلد وبالًا.. إن كان ذكيًا فليتغابى).

أوغل الرجل – الذي أدار الخمر رأسه – في أتون الصور المتداخلة والخطرات، وجمدت نظراته المتوسلة المفجوعة ترنو ساهمة إلى بعيد.

.....

«لا أعرف كيف أخاطبك سيدنا النبي.. غاثبًا في سكرتي، مستسلمًا لذنبي.. عاصيًا.. كسيرًا.. خطاءً.

نحتاجك عُدْ.. أنت آخر رسل المولى لكننا نحتاجك.. عد.. نمتلئ حنينًا للفكرة.. للعدل وللرحمة.. نحتاجك عد...

دموعنا بللت الأرض تحت قدميك الشريفين.. لا نرى في الدنيا حولنا.. إلا اسم بارئك الذي أرسلك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا.. يامدد.. يامدد..».

.....

اهتز كتف الرجل، وانخرط في نشيج يمزق نياط القلوب، وانهمرت العبرات من عينيه، فيما التقف بعض أنفاس الهواء – بصوت مسموع – يحسبه المرء صراخًا لسجين يكويه جلاد صخري القلب.

وانتبه الشمردل على تربيت رفيق فوق كتفه، فرفع الرأس والعينين، متأملًا مفتحصًا الرجل الماثل أمامه، والناظر إليه بإشفاق عظيم.

.....

محمد البتانوني.

رجل حمل عبء التاريخ على كاهله وجاء..

أمضى سنوات العمر الأول شاخصًا إلى عصا السوهاجي، منتظرًا كلمته الفاصلة في كل أمر، مكتسبًا كل مكانته ومنعته من انتسابه إلى ذلك الأب وحضوره الأسطوري، الذي بدا ملحمة استرجعها الناس من كتب وأسفار الماضي.

عاش السوهاجي داعية يفشي الولاء لمعنى الاستقامة، مصدقًا الناس مطيحًا وساوس الشك، وهواجس التخوين، فصدقه الناس، ووقر في ضمائرهم أنه لا ينطق عن الهوى.

حتى أقاربه الذين سرقوا إبله، صدق روايتهم عن استيلاء الحكومة على الجمال، وإلحاقها الهجانة.

رأى الصدق عمود الاستقامة، وهو بغير التصديق كلمة لقيطة لا تنتسب إلى أي سياق.

لم يك تصديق الناس لونًا من عبط ساذج – عنده – إنما إقرار بسلطة الاستقامة ومرجعيتها، التي شاد دعائم هيبته مرتكزًا عليها – كما نبُّوته المصاغ من عود الرمان – فأصدقه الناس – أجمعين – بعدما صدقوه.

وبعد الأب، كان حضور بدرناس في حياة البتانوني استكمالًا لطقس الطيبة، والدعة والتصالح الذي خيم على دار السوهاجي.

شاركت ابن العم – الملآن رجولة وفحولة – لقمته، واقتسمت معه حلم الوصول إلى البتانون أو ما يجاوزها – عبر العلم والاستقامة – ومدت يدها الحانية الراعية، ترفو وترتق كل خروق العوز، أو الحاجة، كيما تكتمل بشارة تحقيق الحلم وتفسيره في خطو ابنها العبقري الصغير.

كان الظفر عند بدرناس رضاء العم والحماة، وإحاطة حضن الزوج الدافئ، وصرخات الابن الفرحة حين يعود من المدرسة، بأوراق نجاح تحمل عبارات التقدير، من كل مدرس بُهر بهذا الولد الرائع.

وبعد رحيل السوهاجي، وغياب حضوره الرمزي الهائل، وتواري سلطته الزاجرة.

وحين بدا أن الابن يخطو – في كلية العلوم – على طريقه المرسوم موشكًا الفراغ من مهمته، شعر البتانوني أن عالمه في «مِعجِبة» ضاق عليه، وأن لهاثه خلف الأمل أجهده، أتعبه، أرهق منه الروح قبل الجسد.

تواق – كان – لتجريب الدنيا خارج ما صاغ السوهاجي وهندس.

قلق – كان – من فكرة الدفع مقدمًا.. معاناة، وحرمانًا، وشظفًا.

لم يعد قادرًا على انتظار ما يتراوح بين الوهم والحقيقة، أو الرهان على استيلاد السعادة من بطن قادم الأيام؛ إذ علمته الحياة أن رحم المستقبل – في كثير أحيان – عاقر لا يطفل.

وكثيرًا ساقته الأفكار إلى اصطخاب داخلي كبير، يفتش عن طريق آخر لمشارفة البتانون، غير أنهار العرق السيال في الغيط، واستمساك – كالقبض

على الجمر – بأفكار الشيخ السوهاجي، في زمن لا يتسع إلا للعدو في أعقاب أنصاف الفرص إن هي لاحت.

زقزقت أفكار السفر، والإثـراء العاجل، في ذهن الرجل البتانوني، المسحور بحكايا من هجروا الأرض، وطاروا إلى بلاد الله لخلق الله، وعادوا بالأوراق المالية الأمريكية الخضراء، وبنوا دورًا بالطوب الأحمر والأسمنت، وفي أحشائها حشدوا المراوح، والبرادات، وأفران الغاز الأفرنجية.

مُرة كالعلقم وقفت أفكار السفر أو الهجرة في حلق بدرناس.

استشعرت خشية من تلك النقلة غامضة العواقب، وتطيرت من تغيير قواعد لعبة الحياة في دارها، والقفز إلى المجهول.

أرادت البتانوني في غيطه يكسو الأرض بالخضرة والخير، ويعود إلى الدار – فتدفعه – ضاحكة – إلى حمام بماء أدفأته في البستلة، مغذية العينين بروعة جسد الزوج العاري، ومليفة ظهره ببعض لحاء النخل البني الناعم المستخلص من تحت الكرناس، والرجل يبرطم لاعنًا أبي تلك المرة المخبوطة، التي تحممه كل يوم، فيما الأقران لا يصيبون حمومًا إلا بعد معاشرة النسوان.

ابتغت بدرناس أن يبقى البتانوني بين ذراعي الأرض، وعلى فرشته بين أحضانها، يملأ الدار بحسه ونَفَسه، ويتعلق بأهداب الأمل في الشمردل.

لكن نداهة الهجرة، وفحيح غواية ثروة طارئة، انتزعا البتانوني من فراش بدرناس، وألقياه في حافلة تزخر بالفلاحين، وتنهب الطريق إلى ليبيا.

وفي بني غازي وجد الرجل أن للمروحة، وبيت الطوب الأحمر، والنقود الأمريكية، ثمنًا يدفعه – وبسخاء – من كبريائه كفلاح تعود أن يسمع صوت الطاعة من الأرض تحت ضربات فأسه، ومن زوجته تحت هبدات

المضاجعة، ومن الأيام حين يشتبك معها، مجبرها على الخضوع – مهما كانت متمردة شحيحة – لإرادته.

هناك.. كانت الأوراق المالية الأمريكية، ولكن الدنيا لم تطع البتانوني، ولا أشعرته بأنه ملك متوج على عرشها كما في «مِعجِبة».. فقط كان عليه أن يطيع.. ويطيع.. ويطيع.

وفي بواكير البواكير من أيام الهجرة، عاوده الحنين إلى الرجوع، ولكنه لم يشأ أن تكون عودته إلى ذات المعتقل الضيق، وزنزانة الحبس الانفرادي مرافقًا أطياف وخيالات الاستقامة، والحلم، وبدرناس، والعمل، وشفاه، والشمردل.. فقد تغير.. نعم تغير.. خلع الجلباب ولبس قميصًا وبنطالًا، ودخن سجائر مكنة في علبة.. وتغير.

أراد أن يعود، ولكن إلى نفسه، وأويقات هناء يستطعم فيها طعم حياة أخرى غير الجدباء الملأى شقوقًا، أو قشفًا، وخشونة وعناء.

رغب العودة ولكن ليس لأيام ينتظر الناس – فيها – أيام مواسم، ليلمع فوق أصابعهم إدام ثريد العيد الزاخر باللحم الضأن، فيأكلون حتى يبشمون، ويلهجون – ثناء ودعاء – لمن أولمهم، بعد عودته من بلد رغد جار، يحمل مروحة، وأوراقًا مالية خضراء، ويدخن لفافات التبغ «المكنة» من علبة.

كان يريد طريقًا سهلًا يسلمه إلى حضن البتانون.. ويحقق حلم أبيه من غير شقاء، وعناء، ومرارة قلب.

عاد محمد البتانوني – بعد شهور ستة – ولكن ليس إلى «مِعجِبة»، وإنما إلى البلد الحلم.. البتانون، وعزم أن يمكث بها منفقًا ما ادخره من مال، باحثًا عن عمل آخر لا يورثه مشقة ضربات الفأس، وكسر الظهر، وهد الحيل.

أراد أن يسلت نفسه من أحمال المسئولية عن امرأته وابنه، ويعيش خفيفًا، منطلقًا، متقلبًا في فضاء نعيم، أيامه مد لا يعرف الجزر.

في أحد بيوت البلد الواقف وسط مساحة حيرة بين الأرياف والبنادر، استأجر غرفة.

وأنفق أيامه في مقهى على الشارع العمومي، يشرب أكواب الشاي بالنعناع، ويدخن، ويراقب الرائح حينًا والغادي حينًا.

كانت أيامًا في الجنة.

وفي أحد مساءات الرجل، عاد من المقهى إلى البيت، وعند المدخل تناهت إلى مسامعه – من الطابق الثاني – عبارات وداع صاخبة كتلك التي تعود البندرية تبادلها بعد الزيارات، وأجادوا إعطاءها حقها، من التمثيل والزيف.

ضيفة تغادر وخلفها زرافة من النساء والعيال، مشددين ألا تغيب عنهم، ناثرين عبارات منغمة تصف خطوتها بأنها عزيزة، وتؤكد أنها أنارت وشرفت.

وتبع تلك الحفلة الصاخبة وقع خطو منتظم واثق على الدرج لامرأة قادرة، تلبس شبشبًا بكعب مثل بنات البنادر.

جمد البتانوني منتحيًا جانبًا ليفسح طريقًا للمرأة المغادرة، فيما بارحه الخفر المصطنع – بسرعة – تحت وطأة فضول التطلع إليها؛ إذ كان يتنشق رائحة امرأة بعد شهور – في الغربة والعودة – منزوع دسمها والنسوان.

عينان مترعتان بالرغبة المتوحشة، ونظرة يفهمها أي رجل ويقدر على سبر غورها، وخصلة من شعر أصفر فاقع لونه، تنسدل من تحت الطرحة

الملونة المذهبة – في دلال – فيما غطاء الرأس انحسر عن ستر كامل الفتحة المثلثة لصدرها، سامحًا بإطلالة ذات شموخ لنهديها أو منبتهما، مطلقًا حوارًا محتدمًا بينهما وعيون رجال عاشقين للحوار.

والملس الشفاف يكشف عن جلباب مكسم لامع، يوحي بمفاتن استثنائية لا يمكن الإحاطة بها في نظرة واحدة.

حياها متمتمًا – وأجابته جهيرة، فابتلع لعابه وواصل سائلًا: «أكنت عند الجماعة؟» مشيرًا إلى فوق. وردت بالإيجاب قائلة إنها كانت في زيارة أختها.

وقرر البتانوني الاستمرار في ذلك الاقتراب الجريء المحفوف بالأخطار على مسرح بيئة ريفية – في نهاية المطاف – لا ترحم، فودود لها مستنكرًا: «وكيف يتركونك تمشين في الليل وحدك؟»، ثم أردف، مستدعيًا كل مخايل الشهامة التي تذكرها: «سوف أصطحبك إلى حيث تذهبين حتى لا يتعرض إليك واحد من المتنطعين هواة البصبصة ومشاغلة الحريم».

كان قبول المرأة السهل لمبادرة البتانوني أمرًا مدهشًا، بالضبط كما كانت تلك النظرات الهائجة العطشى التي اكتسحته بها.

بدت الليلة موشكة على الاحتفال برجل وامرأة تاقًا – مشوقين – إلى رفقة.

الفلاح الضائع الذي لم يعرف إلام تفضي مغامرته البتانونية للعيش بعيدًا عن «مِعجِبة»، والذي تشققت روحه تنادي الارتواء بالحب كما أرض شراقي.. والمرأة القادرة – التي تقدمت صوب بيتها في نهاية الشارع العمومي– ساحبة صيدها، متبادلة معه حديثًا عجولًا، يفتح الأبواب على مصاريعها أمام كل الاحتمالات.

أخبرته بأنها أرملة تاجر غلال ثري، رحل عن الدنيا منذ شهور أربعة، وأن شقيقتها هي الباقية لها في كل حياتها؛ إذ صارت كورقة مقطوعة من شجرة.. وحيدة يطاردها الخوف في لياليها ونهاراتها، وتوشك الرياح على حملها – دائمًا – إلى حيث لا تريد.. ولكنها ارتاحت إليه، وسكنت لشهامته واطمأنت، وشعرت أن السماء رضيت عنها – أخيرًا – حين صادفته في طريقها.

واستمر البتانوني في إمعانه لعب دور الشهم، فدلف معها إلى باب البيت، منتظرًا صعودها للشقة، وفوجئ بالمرأة تشده من ذراعه، مقسمة أن يطلع معها لتكرمه وترد صنيعه، ولم يتردد، فأجاب الدعوة – ملهوفًا – ومَنَّى النفس بليلة من ألف ليلة، عاشها – بالفعل – حين التفت حول جسده حية رقطاء، غرست في لحمه الأنياب تحقنه بالمتعة، فيما يهصره الفخذان مانعاه فكاكًا أو رحيلًا.

وتجاور العاشقان بعد فروغ من تلك المواقعة الحسية، وبعد أن أبلى الرجل بلاء لم تعرفه تلك المرأة من قبل، ومد البتانوني ذراعه محيطًا كتفيها، ضامها كلما أرادت دفن رأسها في صدره لاثمة كل ما لامست شفتاها.

وبدت اللحظة مناسبة لامرأة شهوانية أيقنت أن ما عاشته مع عشيقها هو هناء فراش لم تَخْبُره من قبل، وأنها كانت – تلك الليلة – في رفقة رجل هو معنى الاستثناء، فهمست إليه – بفحيح – مطالبته بالزواج، ولم يتردد البتانوني في قبول الدعوة التي بدت طوقًا للإنقاذ؛ إذ كانت تعني التمرغ في ثروة المرأة، ونعيم وراثة زوج راحل، كان – كما يبدو – زكيبة مال، فيما زوجته – كما يبدو كذلك – لا تحبه؛ إذ خلعت ثوب الحداد عليه بعد شهور أربعة فحسب.

باتت زيجته من تلك المرأة البتانونية مفتاحًا لفَرَجه، وصار – بعدها – اسمًا على مسمى: محمد.. البتانوني.

مشروع وجود على أرض البلد الحلم، وبلوغ للأمل بغير عناء، تلقفه محمد ملقيًا بنفسه في خضم بحرها الصاخب، متقبلًا كل أوامر سيدة فراشه وعلى رأسها أن تصبح عصمته في يدها؛ لأنها لا تأمن غدر الزمن، أو طمع شريك حياة في مال الوِرث.

وأبلغه رجل من حلب «مِعجِبة» – قابله في المقهى في استراحة طريق أثناء نقلة حشيش من «إيبيس» – أنه عرف برحيل بدرناس قبل سفره – في الفجر – إلى البحيرة، فخف البتانوني إلى البلد مسكونًا بوخز الضمير، وذكريات أفاقته – بغتة وبعنف – من طول غياب أو تغييب، وحين بلغ دار السوهاجي، حاول أن يدخل، إلا أن شفاه اتكأت على عصا زوجها الشيخ الراحل، معترضة طريق ابنها، رافضة أن يلقي نظرة وداع على بدرناس التي أحبتها كما لو كانت بنت بطنها.. آمرته أن يرجع من حيث أتى، مشيعته بعبارات تتبرأ فيها من بنوته وأمومتها.

وعاد محمد إلى البتانون، معينًا مربوطًا في وظيفة خادم فراش سيدته، المتفاني في إرضائها، كيما يستمر على قيد تلك الزيجة التي لو انفصم عراها، راح البتانوني إلى ستين داهية.

أرهقته المرأة، وشعر بأن وظيفته معها لا تتجاوز حدود المهام الليلية، التي كانت إحداها سببًا في الزيجة نفسها.

تذكر الأب ابنه عشرات المرات، وأراد أن يذهب للبحث عن الشمردل في مصر، إلا أنه نفض الفكرة من دماغه كلما تمكنت منه؛ لكيلا يشهد الابن

أباه وقد صار عاهرًا استأجرت امرأة البتانون جسده، وقوة عمله، متفقدة – في كل ليلة – الأداء، مبدية الملاحظات، ومطالبة بالإجادة.

لم يك يعرف أن الشمردل – كذلك – بات خادمًا – منح العقل وليس الجسد – لسيد اسمه بشير جار النبي.

وعلى الرغم من حرص الأب على استمرار مشروعه البتانوني، وقع المقدور.

إذ ضجرت المرأة، وأرادت تنويع مصادر متعتها، باحثة عن تغيير وإثارة، وقعت عليهما في شاب معدم، ضخم الجثة، مفتول العضلات، عينته ملاحظًا على مخازن زوجها الراحل، ثم تطور نطاق عمله – متسعًا – ليشمل محلات الغلال، ومتمددًا ليشمل البيت، ثم تمدد – أكثر – ولكن في الفراش.. إلى جوارها.

وحين رأت المرأة العايقة في ذلك العشيق الجديد ترياقًا منعشًا رائعًا، ومختلفًا، عمدت إلى دعوته إلى المنزل – يومًا – وقت وجود الزوج، مداعبته في تهتك، ومقبلته، فلما استيقظ محمد البتانوني من قيلولته، على أصوات حركة وهمس ضاحك، ورأى فضيحته بعينيه، ثار – في غضب مجنون – محاولًا بلوغ الشاب لينال منه، وإذا بالمرأة تلقي عليه يمين الطلاق، مطلقة زغرودة صداحة، تعلن نقلة جديدة في حياتها، طاوية صفحة الزوج المذهول، بادئة سطرًا، وجملة، وفقرة، وصفحة، وسياقًا.. كل منهم جديد.

خرج البتانوني حطامًا من تلك الحادثة، ووجد القدمين تقودانه – مرة أخرى – إلى دار الأم في «مِعجِبة»، يرجوها صفحًا، ويذرف دمعًا، ويقبل كفيها وقدميها، ويصرخ فيها مسترحمًا ألا تطرده من عطفها، وأن تقبله ابنًا من جديد.

جلال صامت، ران على الموقف، فيما طاردت مشاعر متضاربة بعضها بعضًا في فضائه. كشت شفاه عينيها، مدققة في وجه الوِلد متسلحة بالريبة؛ إذ علمتها الحياة – بعد رحيل السوهاجي – ألا تثق – حتى – في ابنها، الذي صدقته بدرناس فكَذَبها، وأخلصت له فخانها، وقضت إلى بارئها من دون مسامحته.

طعنت المرأة في السن، وبلغت من الكبر عتيًّا، ولم تعد قادرة على مقاومة أمومتها، أو زجرها، وقمعها كما فعلت قبلًا، فأومأت الرأس قبولًا، ملقية على أسماع الوِلد وصية، أن يستعيد لها الشمردل من أنياب خطر أحس به قلبها ولم تعرفه، وأدركت وجوده من دون أن تراه.

وتحصل البتانوني عنوان الشمردل من ذلك البلديات الذي يعمل في بناية تجاور سكنى الوِلد، ثم عرف مكان البار، ووقف أمام الابن الثمل الضائع.

.....

«لماذا؟»..

صارخًا عاجل الشمردل الرجل الجالس قبالته، ثم تتابعت صرخاته بالكلمة نفسها، فيما الرجل – مبهوتًا – حار جوابًا.

«لا أبغاك.. الآن – بالذات – لا أبغاك.. لا أرغب في سند مثلي.. طري محني مكسور.. لا أرغب في تربيتة يد أب ألقى بوصية جدي في مزبلة معفونة، ورمى أمي في قلب أتون المحنة، وسلمها للحزن أسيرة».

كجواد أفلت سُرعة، اندفع الشمردل في حديثه، لا يعرف وجهته، لا يرى أمامه، أو يتوقع لحظة ينفد فيها مخزون الغضب، وتسكن نفسه.

لاهثًا – يعلو صدره ويهبط – نظر إلى أبيه وواصل حديثه الباكي المفجع، الذي تعقدت فيه الحروف – على لسان ثمل – وتداخل الكِلم والمعاني.

«لم أك أعرف حين شطبتك من ذاكرتي أني سأكابد كل هذا الشوق إليك.. لم أك أعرف كيف امتلأ القلب بحبك.

كنت لي كتابًا ضاعت خاتمته، وحالة تردد لم يحسمها الزمن، أو التجربة، وسنون العمر».

بدا الابن السكران كبقايا جيش بعثرته الهزيمة، يجاهد كيما يتمالك نفسه، ويعيد تنظيم صفوف الجند، ويمضي إلى الحرب بطلًا مغوارًا وجسورًا، ويحرر مدن الفقر، والقهر والعار، مقيلًا ناسها من وهدة ذل، وخنوع وضياع.

اليوم عادت إلى ذاكرته كل مشاهد طغيان الطاغوت، التي تعود رفقتها، ولاكها، وصاحبها، يلهو بقيوده، ويرافق عجزه.

اليوم أصدر مرسومًا بإطلاق سراح الغضب والثورة، وقتال الشيطان في موقعة فاصلة وأخيرة.

اليوم تذكر صحفًا تزخر بأخبار زفاف كاميليا وبشير، وصور الفرح المنشورة، يتوسطها رجال الحكم، ورجال المال، ورجال الكذب، ورجال السرقة، ورجال الجاسوسية، وكل المماليك الخصيان، وكل الأذناب.

اليوم تذكر منظر هنا ورنا، وأصحابهما يسبونه، ويبصقون عليه، ويطاردونه بالسيارات لخطف المظروف.

اليوم استرجع صورته يبول – في غرفة التحقيق – على نفسه، ومشاهد استجواب سمير.

اليوم بات الرجل مسكونًا بمنظر إدلائه شهادة الزور، وتردده على مكتب محمود جار النبي ليتلقى إعانته الشهرية.

اليوم لا يكتم الرجل بكاءه.

اليوم لا يريد أن يستمر ظهره محنيًا.. اليوم ينادي الاستقامة لتعود ملاذًا للتائهين.

مئات من الأفكار المتضاربة طلبت الإذن بلقاء الشمردل تلك الليلة فأذن لها جميعًا.

أراد أن يُشهد الدنيا – كلها – على ما أراده أعظم أعماله.

ألقى ببضع أوراق مالية على مائدة البار، وشد ذراع الأب ليصحبه – خروجًا في خطو متعثر – ملقيًا بنفسه وبه إلى جوف سيارة أجرة، آمرًا السائق بهدوء وتصميم:

«مسجد الشرطة.. لو سمحت».

.....

اكتظت الساحة المواجهة لمسجد الشرطة في شارع صلاح سالم بسيارات المعزين، والدراجات البخارية التي تستبق ركب أي مسئول، فيما التضاغط التقليدي بين الجنود المنتمين إلى إدارات شرطية وعسكرية مختلفة، هو العنوان الرئيسي لنص تلك الليلة التاريخية، التي يودع فيها البلد واحدًا من أعز أبنائه وأَنْجَبِهِمْ.

ممثلو الصحف ووكالات الأنباء، والفضائيات، والتليفزيون الرسمي يتكأكأون حول كل مسئول أو نجم اجتماعي أو سياسي، أو فنان، أو رجل أعمال، لاصطياد تصريح حول الخسارة الفادحة التي منيت بها مصر لرحيل الدكتور بشير جار النبي.

الجميع يتظاهرون بالعفة والإعراض عن الظهور الإعلامي في تلك المناسبة الحزينة، فيما خطط كل منهم – طوال طريقه إلى المسجد – مجهزًا طنًّا

من الكلام الزرب العاطفي الخلاب، الخلو من أية صدقية، متحفزًا لاختطاف اللحظة أو الإمساك بلاقط الصوت عاضًّا عليه بالنواجز.

عواء السرائن، وومضات المصابيح الحمراء فوق سيارات الحرس، يضفي على الموقف خطورة، ويستحضر كل رمزية هيبة الدولة إلى قاعة العزاء، التي اصطف أمامها طابور من أقارب الفقيد وأصدقائه لتلقي العزاء على رأسهم اللواء محمود جار النبي وعلي الششتاوي ووائل السيوفي فيما تبخر حزن الأب على نجله أمام ولعه بمخاطبة مسئولي الدولة ومتنفذي البلد.

حشد جار النبي كل يقظته وتركيزه، وشحذ قرون استشعاره مرحبًا بكبار المعزين، مرددًا عبارات تبدو طواقم من كلمات تتناثر في هكذا مناسبات من دون معنى.

كان الرجل مشغولًا باستثمار الحالة، راسبًا – باقتدار – في اختبار أبوة اللحظة الأخيرة، بعد إخفاقه أن يكون أبًا طيلة العمر، إلا في سياق مكايدة طليقته، وحرمانها ابنها.

وفي قاعة النساء تصدرت كاميليا الصفوف، وإلى جوارها رنا وهنا، بعد أن أفلح جدهما اللواء ليلة الوفاة في أعقاب اتصالات مكثفة استدر فيها عواطف كبار المسئولين على نحو مبتذل أن يستصدر قرارًا بالإفراج عن الحفيدتين، وتقفيل القضية، ولفت نظر الضابط الصغير الذي حرر المحضر، وتكديره، وإنذاره بالنقل إذا اعترته تلك الحماقة مرة أخرى.

انتحت السيدة أمل راشد – والدة الفقيد – جانبًا، باكية – في نحيب مسموع – متمتمة راثية فلذة كبدها، بكلمات تمزق نياط القلوب، فيما كاميليا همست بغل صفراوي لشادية بنت أختها، متهمة حماتها بالامتلاء نقصًا، ومحاولة لفت الانتباه، والمزايدة العاطفية.

غص المكان بنسوان الـوزراء والفنانات، وعضوات الروتاري، والصحفيات، ونائبات مجلس الشعب، والقيادات النسائية والحزبية، مترصدات كل شاردة أو واردة، متنسمات الأخبار، متبادلات ملاحظات كوخز الإبر عن زوجة بشير وبنتيه اللاتي لم تذرف إحداهن دمعة طيلة الليلة.

مساحة من سواد الحداد، قطعها حضور الحلي الذهبية أو الماسية، وقد بدت أكثر وضوحًا على تلك الخلفية، رافعة شعار التنابذ بالمجوهرات، التي تعد وثائق ثبوت على رفعة الموقع الاجتماعي، وسمو المكانة لزوجة مسئول أو قرينة لص.

نزل الشمردل وأبوه من سيارة الأجرة أمام المسجد، فيما البتانوني يتساءل عن كنه ذلك المشوار، وإصرار الابن على اصطحابه إليه.

وبشعور ضجر زهوق، مد اللواء محمود جار النبي يده لمصافحة الشمردل وأبيه، مشيحًا بوجهه إلى أي اتجاه يتجنب النظر أو تقديم اعتراف مجاني بمثل أولئك الناس لمجرد الشعور بالإحراج.

دخل الشمردل إلى جوف قاعة العزاء، متمالكًا نفسه، قامعًا ترنحه السكران، متأبطًا ذراع أبيه حتى جلسا قبالة المقرئ محاطين بأنساق سلوك منافق، يحيي فيه الجالسون بعضهم البعض بخبط الكفوف على الصدور تحية وسلامًا، أو يطرقون متمتمين بما يبدو وكأنه تكرار لكلمات الذكر الحكيم خلف المقرئ، فيما لا تتعدى المسألة – عند معظمهم – تحريكًا عشوائيًّا للشفاه، أو يرفعون حواجبهم راسمين شكل التأثر التقليدي، الذي – عادة – يرافق تجعد الجباه من فرط الحزن، وخلال تلاوة المقرئ لربع وآخر، يكارمون

بعضهم بالسجائر، مشعليها، نافثين دخانها في سماء القاعة، وكأنهم يزفرون همومًا ثقيلة جثمت على صدورهم جراء فراق الميت، ولوعة الصدمة، فيما يخف معظم الجالسين – في فواصل تلاوة القرآن – لمصافحة الوزراء وترديد عبارات تشيد بتجشم المسئولين عناء القيام بكامل واجباتهم الاجتماعية رغم أحمالهم الوطنية الجسام.

مال الشمردل على أبيه هامسًا:

«هؤلاء المترهلون.. الأميون.. المدعون.. المستريحون.. المتمولون.. الأغنياء إلى درجة الفضيحة، قادرون – بالقطع – على اقتلاعنا من الوجود، وإطاحتنا إلى حيث لا يعرف لنا الذباب الأزرق طريقًا، ولكنني عازم على تحديهم – أجمعين – وإتيان ما لن يتصور أحدهم وقوعه».

وأردف: «أزفت لحظة تعرف فيها سر ابنك وحكاية سفره الطويل من القهر إلى القهر وبالقهر...».

فتح البتانوني حدقتيه مترقبًا وخائفًا، وقام الشمردل – بغتة – يمشي ناحية المقرئ – لحظة تأهبه لبدء رُبع قرآن جديد – واختطف منه لاقط الصوت محدثًا محيطيه بلسان مفلوت من عقاله وصوت جهير فيما المعزون في ذهول، والوزراء مفتوحو الأفواه، والصمت الرهيب اكتسح المكان.

«على من تترحم يا سيدنا؟!».

خاطب المقرئ محدجًا باستنكار، وأردف:

«من نجتمع الليلة وسط سرادق عزائه هو لص قاتل، كل أوراقه البحثية وأطروحاته العلمية، ومقالاته، وخطبه، وكتبه، أجبرني على كتابتها موقعها باسمه، مغتصبها لنفسه».

اعترت ملامح الذهول وجوه الجالسين في القاعة.. وقام رجل من الصفوف الخلفية صارخًا:

«أسكتوا هذا المخبول».

فيما بدأ بعض حضور يرفعون هواتفهم المحمولة إلى آذانهم، منادين على أسماء متعاقبة، يتعجلون أصحابها الدخول إلى مسرح الواقعة ومواجهة الموقف..

«هشام.. هات صلاح بسرعة وتعالوا.. فيه كارثة هنا».

وواصل صانع تلك الكارثة إنتاج عرضه - الكابوس، صائحًا في مستمعيه:

«هل تعرفون أن والد هذا الدعي الكذاب الراحل قتل سمير حسن التميمي.. صديقي.. أخي.. زميلنا بعد اعتقاله على ذمة قضية وهمية عن تنظيم ديني، لمجرد أن ابنه المتلئ - حتى قمة رأسه - غلًّا وصفراوية وشعورًا بالنقص أمامي أراد أن يسيئني في أقرب أصدقائي.

وبعد أن مات سمير شهيدًا للقهر، وللظلم، وللعنف، لفق جلادوه تقريرًا مفعمًا بالتخرصات الكاذبة عن ملابسات الموت، وادعوا موته بجرعة مخدر زائدة، وأجبروني حين تمكن مني الخوف، أن أشهد زورًا، وأصادق على تلك الرواية الساقطة».

ساد هرج ومرج وفوضى في قاعة العزاء، ووقف الكثير من المعزين فيما مسئولو الدولة والوزراء نادوا بأصوات عالية حادة على من ينبغي أن يأتي لينهي المهزلة بسرعة، كعادتهم في انتظار أن ينفذ غيرهم - بالوكالة - ما يبتغون؛ إذ ينمو شعور تلقائي عند الوزير لدى تنصيبه، أن الناس صاروا هبته، وأن عليهم إنفاذ رغباته والخضوع لتوجيهاته.

دخل اللواء محمود جار النبي إلى القاعة – مهرولًا ومتأخرًا – بسبب عيادته كاميليا في عزاء السيدات ضمن منظومة ملق ونفاق أحاطها بها في الساعات الأخيرة، مع انتقال كامل مقاليد السلطة الإدارية والمالية في الجامعة إليها، وإبقاء الشركاء الأجانب عليها – منذ اللحظة الأولى – ورغبته المستعرة في إسناد رئاسة شركته الأمنية لواحد من تلاميذه، والتحاق المجد والقوة – في أعظم تجلياتهما – مع كاميليا، وليصبح أحد مساعديها، بعدما باتت – بين عشية وضحاها – موضع اهتمام ورعاية واحترام وتدليل الدولة المصرية خلفًا لقرينها الراحل، حتى من قبل صدور إعلان وراثة.

ارتاحت كاميليا لنهج اللواء جار النبي، ملتذة بتحول ذلك الجبار – الذي لطالما ازدراها – إلى قط شوارع رث.. خادم حقير يتنسم طلبًا تطلبه، أو أمرًا تأمره ليهرول متفانيًا في إنفاذه.

وحين عودته إلى قاعة عزاء الرجال بهت لما يجري، واندفع جار النبي الأب صارخًا: «نادوا الحرس – جميعًا – لإخراج هذا الكلب...».

وقام بعض المعزين يحاولون الإمساك بتلابيب الشمردل، أو اختطاف لاقط الصوت منه، فيما ألقى محمد البتانوني نفسه في طريقهم، ذائدًا عن ابنه الذي استرسل من دون توقف:

«أكمل بشير جار النبي ثأرة من موهبتي، وانتقامه من تفوقي، منتصرًا لمعنى عدم استحقاق الفقراء تقدم المشهد أو الصفوف.. واختطف حبيبتي كاميليا، مغويها بالمال وبالنفوذ، وتزوجها كيما يكمل لوحة قهري.. حقي هو قلادة النيل العظمى عن إنجازي العلمي الذي اغتصبه هذا الدجال».

كإعصار تقدمت ثلة من حراس ضخام الجثث، حليقي الرؤوس، مفتوحي السترات، واضعين الطبنجات حول خواصرهم، ممسكين بأجهزة

اتصال لا تتوقف عن الوش والصفير وإعطاء الإشارات، والشمردل يسرع مكملًا رسالته:

«اليوم يؤسسون – بمشاركة الأمريكان والإسرائيليين – جامعة (السلام) قاعدة لاختراق سياسي وأمني كبير.. اليوم تتكامل حلقات سلسلة شيطانية حين يدفعون أحد رجال الأعمال لإصدار جريدة (التقدم) لتصير بوقًا إعلاميًّا لعملية الاختراق.. اليوم تتقدم على أرضنا قوات احتلال جديد كان بشير جار النبي وزوجته كاميليا مبروك طليعته.. اليوم....».

انقض الحراس على الشمردل، وهوى أحدهم بقبضة الضخمة على وجهه، لاويًا ذراعه خلف ظهره، مقتاده إلى الخارج، مجرجره، فيما البتانوني يصرخ:

«سيبوا ابني يا كفرة.. ح تموتوه.. ح تموتوه».

وعلى سفح الدرج أمام المسجد، بدأت وقائع حفل عنف صاخب.

كانت قبضات الحرس المتحلقين حول الشمردل تتوالى على وجهه، فكأن كل منها قاطرة تصدمه مطيحته إلى حيث لا يحتسب.

منذ اللحظات الأولى غاب شعوره بما يجري، وتداخلت في رأسه صور من الواقع والخيال، وتقاطعت أصوات تبين منها – أحيانًا – صراخ البتانوني عليه، واستغاثاته بالناس في الشارع أن يدركوا ابنه وإلا هلك، فيما أحد الحراس يمسك بالأب مانعه التقدم أو الحركة.

صورة سمير في غرفة التحقيق تتجلى في ذاكرته، باشًّا في وجهه هامسًا: «إن الله مع الصابرين»..

النساء خرجن – ملتاعات – من قاعة عزاء الحريم يتعالى عويلهن، وبينهن وقفت كاميليا تنظر إلى الشمردل ساهمة، وهو مكوم على الأرض، فيما أحذية الحرس تركل رأسه، وبطنه، وظهره في عنف مروع.

ممثلو الفضائيات اقتربوا من المشهد، وبدأوا في تسجيل وتصوير ما يجري، بينما بات التوتر المخبول عنوان اللهجة السائدة في كل أجهزة الاتصال.

مراسل جريدة (التقدم) يتلقى تعليمات من الناشر ورئيس التحرير – اللذين حضرا العزاء – كيما يركز على وصف ما جرى بأنه: (حادث مؤسف ارتكبه مجنون) على حين كانت الاتصالات الحاملة رسائلَ أولية لوسائط الإعلام العربية والأجنبية تشير إلى مذبحة يتعرض لها رجل أعلن في عزاء الدكتور بشير جار النبي أنه صاحب كل إنجازه العلمي.. واتصالات أخرى من جهات سيادية أمرت بانسحاب الحرس من حول الشمردل، وتركه – فورًا – إلى حال سبيله.

.....

جثا البتانوني على ركبتيه إلى جوار ابنه، ودموعه تسيل على الخدين أنهارًا، وبدأ الشمردل يفيق رويدًا رويدًا، ناظرًا إلى عيني أبيه متنسمًا فيها الرضاء، فيما صوت المقرئ يعود صادحًا مرتلًا وسط طنين لا يتوقف لرغي، وثرثرة، وتعليقات متقاطعة، تناقش ما جرى، وتحاول سبر غوره.

الشمردل – بصعوبة – وقف على قدميه متكئًا على كتف أبيه، تحوطه عدسات الكاميرات، ولواقط الصوت، ليتحدث – في أنفاس متقطعة وبصوت واهن – راويًا كل فصول حكايته، والحرس وضباط الشرطة يرقبونه من بعيد، مغلولة أياديهم بأوامر عدم الاقتراب.

التقت عيناه وعينا كاميليا، معلنتيها أن الولد الفلاح المتفوق، حرر – الليلة – ثغورًا محتلة، ومدنًا سليبة، وقلاعًا كانت قد سقطت.

.....

«تعال – يا ابني – نرجع (مِعجِبة)».

قالها البتانوني بقلب ينفطر على منظر ابنه، والدم – غزيرًا – يسيل من رأسه إلى جبهته، إلى صدغه، راسمًا خطوطًا ودوائر عشوائية، ناثرًا قطراته، على ياقة قميصه، وصدر سترته الممزقين.

«نذهب إلى مستشفى في الدقى لتضميد الجرح، وألتقط شيئًا من المنزل ثم نسافر يا آبا».

أحب البتانوني معاودة الاستماع إلى كلمة (آبا) من ابنه، مشنفًا أذنيه، مثلجًا صدره باستعادة صداها كما نطق بها الوِلد.

دفع به إلى سيارة أجرة أوقفها في شارع صلاح سالم، بعد أن ألقى بنفسه في طريقها، فيما الضابط والحراس يبلغون – في عصبية – أمر مغادرة الرجل وأبيه مسرح الحادث.

وفي البيت، فتح الشمردل درج مكتبه، مخرجًا ربطة منديل شفاه، التي احتوت إرث أمه، ووضعها في جيبه، متسندًا – من جديد – على أبيه، قاصدًا طريقه إلى الشارع، بحثًا عن سيارة أجرة تحملهما إلى البلدة.

.....

رنا البتانوني إلى ابنه – الجالس جواره على مقعد في سيارة أجرة تنهب الطريق إلى «مِعجِبة» – غامِرَه تحنانًا عظيمًا، وماسحًا على رأسه المحاط رباطًا أبيضَ ضمد جرحًا غائرًا.

أحاطت إحدى عيني الشمردل هالة زرقاء، وتخثرت بعض دماء على جانب فمه، فكان وجهه آية في الحسن، وتمزقت ثيابه وتهلهلت فبدا في كامل هندام وأناقة.

أفاق الشمردل من سكرة طويلة الأمد، وعقد العزم على مواجهة الدنيا لا مراوغتها.. وعادت للرجل الأربعيني لمعة نظرته الذكية اللماحة، يترامق وأبوه فيتبسمان مملوءين بالارتياح والغبطة، متبادلين حديثًا صامتًا عن أحداث الليلة.

اليوم – بالذات – بات البتانوني دَثِرًا بذلك الابن على نحو يفوق كل أموال الهجرة الخضراء، وميراث الأرملة الهائجة.

كان الأب فخورًا وهو يؤوب بابنه إلى «مِعجِبة» من جديد.

سيدخل به على شفاه فيُحيي قلبها الذي شققه الحزن، ويباهي الرجال في جلسات المغارب بسيرة ابنه الذي اعتقل أحد الجبابرة الجلادين أفكاره وعقله – لسنوات – وتحصل عنهم أعلى وسام وطني، ثم كسر الوِلد أسوار الزنزانة، وباح بالحقيقة، وعانق الحرية.

ستضوي دار الشيخ السوهاجي من جديد، وتصير قبلة الملهوف إلى العلم والرأي والحكمة والموعظة الحسنة.

سيزوج البتانوني ابنه، امرأة ساطعة الحُسن، طيبة طاهرة – كبدرناس – تنجب له عشرًا من الوِلد الصالح فيحسن تنشئتهم وتربيتهم.

لن يجرؤ أحد القتلة على الاقتراب منه؛ إذ يعرف الناس – اليوم – الحقيقة، أو يلابطون حولها، ويصخبون بشأنها، بعدما خرج الابن إلى فضاء الجهر، عابرًا أسوار معتقل الكتمان.

اليوم لا يقدر أي خسيس على إعمال طعان الغدر في جوف الظلمات.

كل ذلك الجبروت سيعجز عن اختطاف الشمردل من جديد، وسينقلب أصحابه مع الخاسئين.

زقزقت الحقيقة كعصفور فتان، يروي الحكاية على كل حواف الشرفات، وأغصان الأشجار، ويفتح ضلفات البوابات، ويعبر كل الأسوار.

لم يخبرنا أحد أن طغاة العصر وجدوا سلاحًا ماضيًا قَـتَّالًا يغتال الكلام، إذا أطلقناه أسرابًا يرفرف كزغاليل الحمام.

الابن العائد سيجعل من بيت السوهاجي مدرسة يولي أبناء البلدة الوجوه شطرها كيما ينير الشمردل عقولهم، ويلقنهم أصول الكيمياء ومبادئ الاستقامة، وسيعود البتانوني للفلاحة في أراضي الغير، قاهرًا سنواته الستين يأمر الأرض فتنصاع له، وتخضع لضربات فأسه.

لن تذهب نفس الابن على كاميليا حسرات، سيعيش، يستقبل أيامًا رائعة وضاءة ويحيا، وتنير كل نجوم سمائه بعد أن طُمست في ليالي شكول طوال كابيات.

لن تذهل كل مرضعة في البلد عما أرضعت، وستعيش «مِعجِبة» الفرح الذي – تواقة – انتظرته طويلًا.

ستمتلئ الجرائد والشاشات بصور الشمردل وأخباره، وستحاول كل أجهزة الدولة وصمه بالجنون، أو الحقد، أو الرغبة في الشهرة، أو تعمد إلى توليف حكايات عن إدمان أو نسوان، ولكن صوت الحقيقة سيعلو – رويدًا رويدًا – حتى يبتلع الكِلم المجرم في جوفه.

لن يصبح ابنه الحر مستعبدًا، حتى لو صار العبد معبودًا.

شعر البتانوني أن مكابدته وعثاء السفر في طريق حياته الوعر دون تلك اللحظة البديعة التي يعيشها الآن، كانت ثمنًا زهيدًا جدًّا برضاء يدفعه وعن طيب خاطر.

اليوم يعود بابنه إلى «مِعجِبة» – بُعيد الفجر – سائرين على حافة قناة ناظرين إلى ثمار التوت الفاتنة فوق أشجارها، مظللين بتحايا بسامة من رجال يسحبون مواشيهم إلى الحقول، فيما نسوة يحملن دواجنهن في أقفاص من الجريد، وسلال ملأى بالجبن أو الزبد أو البيض، قاصدات سوق الثلاثاء.

«الشمردل كان منور في التليفزيون امبارح يا آبا محمد».

عبارة تناثرت – بصياغات مختلفة – من شباب ورجال البلدة طوال الطريق المفضي إلى دار السوهاجي.

تحسس الشمردل مكحلة وخلخال بدرناس في جيبه، وشعر بأنفاس الأم على خده وصوتها يهمس في أذنه: «ضحكت لك سنبلة يا ولدي».

وعلى عتبة الدار وقفت شفاه متكئة على عصا زوجها، حاضنة الحفيد، متلمسة وجهه، موقنة أن عقل الولد – من اليوم – لن يكون وبالًا.. وسيحمي الناس عبقرية ابنهم وذكاءه.

ستخطب له بنتًا من أجمل البِنتِة، عينها كفنجان، وحاجبها سيف مجرد من غمده، وشفتاها ورديتان كالدهان، ووجهها أبيض يشرق بنور ربه، وجسمها كغصن البان.

وفي الموعد سيتقاطر الرجال إلى عرسه بجلابيب الجوخ، والمقاريط والشماريخ، وتصدح كل المزامير والربابات، وتدق الطبول، مخالطة غناء النسوة والبنات الصاخب.. وهتاف الذكر المنادي – من أعماق القلوب – المدد:

«سلطان العاشقين يامدد.. يا ابن الفارض يا مدد.. سيدي محيي الدين يا مدد.. سلطان العارفين يا مدد.. يا ابن عربي يا عربي مدد.. يا مدد يا مدد.. سيدي عبد الكريم يا جيلي مدد.. سلطان المحبين يا مدد.. يا سيدنا الحلاج المدد.. يا شهيد الحق مدد».

.....

وهمس حفيف أوراق الشجر – في يقين- أن الليالي حبالى وستلد عما قريب، أطفالًا مفرحين، أطهارًا كالحليب، عباقرة، مفرودي الظهور، عيدانًا من الرمان، مرشوقة كالحراب في كل أرض البلد، تأبى...

تأبى الانحناء.

تمت

برج العرب – الإسكندرية

19 أغسطس – 2010

obeikandl.com

obeikandl.com